بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقدمـــــة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستهديه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، والصلاة والسلام على سيدنا وإمامنا ومعلمنا محمد النبى الأمى وعلى آله وصحبه وسلم . آمين .

هذه وقفات تأملية فى تاريخ علم الكلام أردت بها إلقاء الضوء على وظيفة هذا العلم ومهمته الأساسية التى أشار إليها مؤرخو علم الكلام، ونبَّهوا إليها فى تعريفات العلم. وهى لا شك وظيفة جليلة الشأن عظيمة الفائدة، استمدت مكانتها وقيمتها من أهمية موضوعها؛ وهو البحث فيما يجب لله سبحانه وما يستحيل وما يجوز، والنبوات والسمعيات . وهى مسائل العقيدة ودلائلها من الكتاب والسنة . وكيف نهض أئمة هذا العلم بهذه الوظيفة قدر استطاعتهم دفاعًا عن العقيدة الإسلامية ضد خصومها من أهل الملل والأديان المخالفة.

ثم كيف تحولت وظيفة علم الكلام على يد المتأخرين إلى مساجلات بين الفرق الكلامية وصراع مذهبى، تولَّد عنه تطرُّف فى الأحكام وتعصُّب للرأى، ضاع فى حلبته الهدف الأساسى لوظيفة علم الكلام، وتاهت معالمها، وبدا الأمر - فى نظر المتأخرين - وكأنَّ غاية هذا العلم هو الانتصار للمذهب، والغلبة على المخالفين.

وجاءت هذه الوقفات فى شكل مطالب تحتاج إلى من ينهض بها من علماء الكلام وطلبة العلم المعاصرين وفاءً لوظيفة علم الكلام وأهميتها فى عصرنا الحاضر، وتصحيحًا لمسار العلم، والعودة به إلى الدفاع عن العقيدة ضد خصومها

كما فعل ذلك أئمة العلم ومؤسسوه، والانعتاق من الصراع المذهبى بين الفرق.

جاء **المطلب الأول** عن وظيفة العلم، ومهمته الأساسية، وكيف نهض بها القدماء فى عصرهم.

وجاء **المطلب الثانى** عن تحول مسار العلم على يد المتأخرين إلى صراع ومساجلات مذهبية.

أما **المطلب الثالث** فكان عن إعادة القراءة لعلم الكلام؛ قراءة مقاصدية تصالحية، نهتم فيها بالبحث عن مواضع الاتفاق الماثلة فى المقاصد والغايات وتنميتها، وتجتمع الكلمة حولها، ويعذر كل فريق صاحبه فيما يخالفه فيه من آراء. وذلك بحثًا عن عوامل وحدة الصف ولمِّ الشمل الممزق وجمع الكلمة حول وحدة الهدف والمقصد .

أما **المطلب الرابع** فكان عن «عقيدة بلا مذاهب» كمخرج للأمة من حالة الشتات والتمزُّق وخروجًا من التعصُّب المذهبى الذى أورث الشباب تطرُّفًا فى الأحكام وتعصُّبًا للرأى ورفضًا للآخر.

وفى المطلب الخامس وضعنا معالم أراها مهمة لإعادة قراءة علم الكلام الجديد فى ضوئها، وأضفنا قضايا جديدة معاصرة تحتاج إلى أن تكون ضمن مقررات علم الكلام الجديد؛ حتى يعيش المهتمون بعلم الكلام (أساتذة وطلاب) واقعهم المعاصر بمشكلاته وهمومه، كما فعل ذلك القدماء فى عصرهم.

ثم ختمنا هذه المطالب بموجز عن أصول العقيدة التى أجمع عليها سلف الأمة وأئمتها.

إنها وقفات مع علم الكلام نستحضر فيها وظيفته الأساسية بغية إحيائها من جديد؛ لنعيد للعلم مهمته فى الدفاع عن العقيدة، وليس لمساجلات الفرق بعضها مع بعض.

وهى وقفة مع المشتغلين بعلم الكلام المعاصرين بهدف تأسيس علم كلام جديد، جديد فى قضاياه، وجديد فى منهجه، علم كلام يتناول قضايانا نحن، التى يواجه بها الخصوم المعاصرون أصول عقيدتنا وفروعها، علم كلام جديد يعالج مشكلات عصرنا نحن وما أكثرها ! وهذا ما فعله القدماء فى عصرهم، وهذا ما قام به أئمة العلم فى مواجهة مشكلاتهم.

والله من وراء القصد.

أ. د / محمد السيد الجليند

١٦ ذو الحجة ١٤٣٥ هـ

١٠ أكتوبر ٢٠١٤ م

المطلب الأول
مهمة علم الكلام

واجهت الأمة الإسلامية عبر تاريخها الطويل ثقافات وحضارات متباينة ، تختلف فيما بينها فى منطلقاتها الثقافية والحضارية وعاداتها وتقاليدها، كما تختلف فى نظرتها للوجود والإنسان والمصير والمبدأ والنهاية. وكان ضروريًا أن تنعكس هذه الثقافات المتباينة فى علاقتها بالإسلام والمسلمين، وبدأت هذه الخلافات الثقافية تظهر فى علاقة الشعوب والأفراد الذين دخلوا الإسلام فى شكل حوارات ولقاءات بين الأفراد، ثم فى شكل مناظرات بين المسلمين والوافدين إلى الإسلام حول كثير من المسائل الدينية فى أصول الاعتقاد. وشهد القرن الثانى الهجرى بدايات هذه اللقاءات الثقافية التى تعددت مجالسها وتنوعت موضوعاتها خاصة أثناء عصر الترجمة وبعده، ونتج عن ذلك الاحتكاك الثقافى دخول مفردات جديدة فى لغة الخطاب الدينى لم يكن للمسلمين عهد بها من قبل، كما طُرحت قضايا وأفكار حول أصول العقيدة لم يكن للمسلمين عهد بها من قبل وخاصة بعد أن تُرجمت أفكار اليونان عامة وأرسطو خاصة حول العالم بدأ ونهاية، وحول النفس وعلاقتها بالبدن، وحول المصير الإنسانى، ومقارنة ذلك كله بما جاء به الإسلام حول هذه المسائل جملة وتفصيلًا.

إذا أضفنا إلى ذلك الحوار مع الثقافة اليونانية ألوانًا أخرى من الحوارات الوافدة من الثقافة الهندية والفارسية مع المسلمين الجدد **نستطيع أن نقول**: إن عناصر المواجهة مع هذه الثقافات المختلفة كانت تحتاج إلى عقليات ذات خبرة بهذه الثقافات ووعى بها وبأصولها وفروعها ومواطن الضعف فيها؛ حتى تستطيع أن تواجه أصحابها بمنطق العقل والبرهان، وتبيِّن فساد ما معهم من أفكار وآراء،

وتحسن عرض العقيدة الإسلامية وموقفها من قضايا (الله – الوجود – الإنسان – المصير – النفس ...) الخ.

وهذا ما قام به علماء الكلام المتقدمين فى هذه المرحلة من جانب وعلماء الحديث وأهل الأثر من جانب آخر.

فلقد ارتبطت النشأة التاريخية لعلم الكلام بالحوار العقائدى الذى تم فى مجلس الحسن البصرى حول مرتكب الكبيرة. وهل يسمى مؤمنًا، أو يسمى كافرًا، أو فاسقًا؟ وذلك بعد أن ظهرت بدعة الخوارج فى أن مرتكب الكبيرة كافر مخلد فى النار لا تنفعه شفاعة الرسول ﷺ. وانتهى الحوار فى المجلس إلى ثلاثة آراء معروفة:

١- **رأى الخوارج**؛ وهو أن مرتكب الكبيرة كافر.

٢- **رأى الحسن البصرى ممثل أهل السنة**؛ وهو أن مرتكب الكبيرة مؤمن عاصٍ، إن تاب تقبل توبته بمشيئة الله.

٣- **رأى واصل بن عطاء** الذى يرى أن مرتكب الكبيرة ليس مؤمنًا كامل الإيمان ولا كافرًا، وإنما هو فى منزلة بين المنزلتين.

ولما كان هذا الرأى الأخير مخالفًا لرأى الحسن البصرى فقد أمره الحسن باعتزال المجلس، وفعلًا اعتزل واصل بن عطاء مجلس الحسن البصرى. ويجمع المؤرخون لعلم الكلام أن هذه الواقعة تمثل البدايات التاريخية لنشأة علم الكلام. وأخذ واصل بن عطاء وتبعه عمرو بن عبيد يواجهان بمنهجهما العقلى كثيرًا من الآراء والعقائد المنحرفة الوافدة مع الثقافة الجديدة، فناظر واصل بن عطاء وعمرو ابن عبيد غلاة الشيعة والثنوية، وردوا على المنوية والقائلين بالنور والظلمة، كما واجها الفرق التى انحرفت بفكرها عن المنطق والعقل، واستعانت بالسلطة السياسية لترويج آرائها والعمل على شيوعها بين أفراد الأمة، كما فعلت الجهمية والمجبرة. وكتب فى الرد عليهم عمر بن عبيد ومن قبله واصل بن عطاء.

ومن يطالع مؤلفات أوائل المعتزلة ورسائلهم ومناظراتهم مع خصوم الإسلام يعلم أن الجهد الأكبر لهم كان موجهًا للدفاع عن العقيدة وقضاياها ضد خصومها من أصحاب الديانات المختلفة؛ سواء كانت ديانات وضعية كالدهريين والثنويين أو ديانات سماوية كأهل الكتاب من اليهود والنصارى.

وهذا الدور الذى قام به واصل وعمر بن عبيد أخذ به أوائل المعتزلة فى مناهضة الأفكار المنحرفة عن صحيح العقيدة؛ سواء كانت فى الداخل أو فى الخارج. ولقد سجل الخياط فى كتابه « الانتصار » كثيرًا من هذه المساجلات التى وقعت بين أوائل المعتزلة وخصوم الإسلام فى كثير من قضايا (الألوهية - الوحى - العالم - النفس - الخلود)؛ مما يؤكد الدور الثقافى الذى نهض به أوائل المتكلمين فى الدفاع عن الإسلام.

ويحكى النوبختى فى كتاب « طبقات المعتزلة » عن واصل بن عطاء (ت١٣١هـ) أنه كان يملى مسائله على أتباعه فى الرد على المذاهب المنحرفة، وأنه أملى كتابًا فى الرد على الثنوية، ترجمه بالألف مسألة. وأنه موجود جزء كبير منه كان فيه ثمانون مسألة فى الرد على الثنوية قائمة على الحجج العقلية[١].

وأبو الهذيل العلاف نَاظَرَ يهوديًا كان ينكر معجزات نبى الله عيسى عليه السلام، ويقول: إنه ساحر وليس بنبى، وأنكر معجزته فى إحياء الموتى وشفاء المرضى[٢].

وكان المأمون يعقد مناظرات بين أبى الهذيل العلاف وبعض المشتغلين بالتنجيم؛ ليرد عليهم، ويبطل آراءهم[٣].

وكانت مناظرات المعتزلة الأوائل لا تنقطع مع الملحدين والمجوس، وهى فى

(١) طبقات المعتزلة: ص ١٦٥ بتحقيق فؤاد سيد، ط الدار التونسية .
(٢) نفس المصدر ص ٢٦٣ .
(٣) نفسه ص٢٥٩ .

معظمها تقوم على المنهج العقلى مجاراة لموقف خصومهم، ولقد أنشا الخليفة العباسى (المهدى) دارًا مستقلة للبحث والرد على الملحدين من أهل العقائد المنحرفة، وتولى العمل بها كبار المعتزلة؛ وذلك بعد أن تفشت ظاهرة الإلحاد، وظهرت الثنوية فى عصره، وازداد الخطر على العقيدة الإسلامية. وتشير المصادر إلى الدور الخطير الذى قام به ابن المقفع فى هذا الشأن. **يقول الخليفة المهدى**: ما رأيت كتابًا فى الزندقة إلا ويرجع إلى ابن المقفع، فله فى ذلك حديث أطول[1].

وبالإضافة إلى ذلك كان المحدثون يفضلون المنهج النقلى فى الدفاع عن قضايا العقيدة ومسائلها، وكان له سمته الخاص به فى إيراد المسألة المعينة من مسائل العقيدة، ثم الاستدلال عليها من الكتاب والسنة مباشرة؛ سواء فى ذلك موقفهم مع أهل المذاهب المنحرفة أم فى الرد على بعض آراء المعتزلة التى رآها المحدثون خروجًا عن العقيدة الصحيحة. **وكانت لهم مؤلفاتهم التى تحمل معالم هذا المنهج، مثل:**

١- كتاب السنة للدارمى (ت ٢٨٠هـ).

٢- السنة للإمام أحمد بن حنبل (ت ٢٤١هـ).

٣- السنة للالكائى (ت ٤١٨هـ).

٤- السنة لأبى بكر بن الأثرم (ت ٢٧٢هـ).

٥- السنة للمروزى (ت ٢٩٤هـ).

٦- السنة لابن أبى زمنين (ت ٢٩٩هـ).

٧- السنة لابن منده (ت ٣٩٥هـ).

كما ظهرت مجموعة أخرى من مؤلفات أهل السنة تحمل عنوان (الرد) منها :

١- الرد على الزنادقة والجهمية لأحمد بن حنبل (ت ٢٤١هـ).

(١) تاريخ الإلحاد فى الإسلام، ج . ن . قنواتى، ص٣٨٠ بحث ضمن مجموعة ترجمه د/ عبد الرحمن بدوى .

٢- الرد على الجهمية لعبد بن محمد الجعفى (ت ٢٢٩هـ).

٣- الرد على الجهمية للبخارى (ت ٢٥٦هـ).

٤- الاختلاف فى اللفظ والرد على الجهمية لابن قتيبة (ت ٢٧٦هـ).

٥- الرد على الجهمية للدارمى (ت ٢٨٠هـ).

٦- الرد على الجهمية لابن أبى حاتم (ت ٣٢٧هـ).

٧- الإبانة على أصول الديانة لابن بطة العكبرى (ت ٣٨٧هـ).

٨- الإبانة عن أصول الديانة للإمام الأشعرى (ت٣٢٤هـ) [١].

ولا شك أن هذه العناوين السابقة لها دلالتها فى بيان الهدف والغاية من تأليف هذه الرسائل؛ وهو بيان ما عليه أهل السنة والجماعة، وما مضى عليه سلف الأمة فى الاعتقاد والإبانة عنه والرد على المخالفين له.

والغرض الذى نود الإشارة إليه من ذكر هذه النماذج السابقة هو الإشارة إلى أن المتكلمين كانوا يتابعون الشبهات الطارئة ويتابعون من يثير الشكوك فى العقيدة الإسلامية أولًا بأول. ولم يتخلفوا عن متابعة المشكلات الوافدة عليهم بقصد التشكيك فى أصول الدين ومصادره، ولم يتخلفوا عن مشكلات عصرهم وقضاياه، فكانوا يعيشون واقعهم بمشكلاته وهمومه، وكان اهتمامهم كله موجهًا إلى دحض الشبهات ومواجهة الشكوك التى يثيرها أهل الملل الأخرى من المجوس والثنوية والدهرية والطبعيين، ولا يكاد يخلو تراث واحد من الأئمة الكبار من رسالة أو مناظرة فى الرد على هؤلاء وأولئك، فلم ينقطعوا عن الدفاع عن العقيدة ضد مخالفيها. ولم يظهر فى تراث الأوائل منهم فكرة التعصُّب لإمام معين ولا رأى معين،

(١) راجع منهج السلف بين العقل والتقليد ص٨٦-٩٠ ، د/ محمد الجليند، العدد الرابع من سلسلة تصحيح المفاهيم .

وإنما كان هدفهم تجلية الحق، ويدورون معه حيث دار.

ومن المهم أن نشير فى هذه المرحلة إلى أمر مهم يبدو واضحًا فى تراث أوائل المتكلمين؛ وهو وضوح الهدف ووضوح الرؤية التى تجسدت عندهم فى وظيفة علم الكلام وهى الدفاع عن العقيدة ضد خصومها. وهذا الهدف كان ماثلًا أمام أعينهم فى كل مناظراتهم أو فى رسائلهم الصغيرة. وكانت لغة الحوار مع مخالفيهم تتسم بالوضوح والمباشرة. كما يتضح ذلك فى مناظرات واصل بن عطاء مع المنوية، وفى رسائل الجاحظ، ومن قبله النظام والعلاف، وكذلك الأمر كان أكثر وضوحًا فى مؤلفات المحدثين السابقة، **فالكلُّ كان حريصًا على وضوح الهدف، وتجلية الموقف، وبيان أصول العقيدة**، وربما كانت مناظرة الإمام أبو الحسن الأشعرى مع الجبائى حول قضية الصلاح والأصلح تعطينا دليلًا واضحًا على صحة ما نقول.

فمن المعروف أن الجبائى إمام كبير فى مذهب المعتزلة. **وهم يقولون** بأن الله تعالى يريد لعباده ما فيه الصلاح والأصلح لهم، ولا يريد الشر لهم؛ لأن إرادة الشر قبيحة، والله منزه عن ذلك. **أما الإمام الأشعرى فلا يرى ذلك، ويقول**: إن الله يريد الشر كما يريد الخير، ولا يقع فى ملكه إلا ما يريد. ولا يصح القول بأن الله لا يريد الشر مع أن العالم طافح بالشرور، ولا يقع ذلك إلا بإرادته سبحانه؛ لأنه لا يقع فى ملكه إلا ما يريد، **وجرت المناظرة بين الجبائى والأشعرى** حول هذا الموضوع على النحو التالى:

يقول الأشعرى: هبْ أن هناك ثلاثة ماتوا: مؤمن صالح، وكافر، وطفل صغير.

فالمؤمن الصالح يدخل الجنة بفضل الله وعمله. وهذا إصلاح له وأصلح.

أما الطفل فيقول: يا ربى لما أمتنى صغيرًا. ولما لم تتركنى فأكبر وأعمل صالحًا أكثر وأكثر فأنال الدرجات العليا فى الجنة؟

فيقول له سبحانه: أعلم أنك لو كبرت كفرت فتدخل النار. فكان الأصلح لك أن تموت صغيرًا وتدخل الجنة.

وهنا يقول الكافر: وأنا يا رب لما لم تمتنى صغيرًا مثل هذا الطفل وأدخل الجنة ولما تركتنى أكبر وأكفر وأدخل النار؟

وهنا انقطع الجبائى عن المناظرة[1].

نلاحظ فى هذه المناظرة: سهولة الأسلوب، وواقعية المثال المطروح للحوار، ووضوح الهدف، والرؤية فى تفنيد موقف الجبائى بأيسر السبل وبطريق مباشر بعيدًا عن الجدل وتبادل الاتهامات، وهذا كان طابعًا عامًّا فى تراث الأوائل عمومًا. ويتضح ذلك بجلاء فى رسائل الأشعرى «الإبانة» و«رسالة إلى أهل الثغر»، وكذلك كان الأمر فى تراث أوائل المعتزلة مع اختلافهم فى المنهج والأسلوب عن الأشاعرة، إن لغة الحوار عند الجميع هادفة إلى تجلية الحقائق بدون تكلُّف فى العبارات، ولا تطرُّف فى الأحكام.

ولا شك أن هذه المهمة التى قاموا بها عظيمة الشأن، جليلة القدر، استمد منها علم الكلام مكانته بين العلوم الإسلامية، فقالوا: إنه أفضل العلوم وأجلها قدرًا؛ لأنه يتعلق بالبحث فى (ما يجب لله – وما يستحيل – وما يجوز ...) وهى وظيفة لا تعلوها وظيفة أخرى.

ولذلك فقد قام أوائل المتكلمين بدورهم فى أداء هذه المهمة باقتدار وأمانة، فتولوا عرض مسائل العقيدة ودلائلها كما اقتضتها ظروف عصرهم، وتولوا الدفاع عنها ضد خصومها حسب المشكلات التى واجهتهم، وحسب الشبهات والشكوك التى أثارها الأعداء وأصحاب المذاهب المنحرفة.

---

(١) تكررت هذه المناظرة فى كتب علم الكلام . **انظر على سبيل المثال:** القسطاس المستقيم للغزالى ص٧٣، غاية المرام فى علم الكلام للآمدى ص٢٢٨، قضية الخير والشر ، د/ محمد الجليند، ص١٦٠ .

ومن يتتبع تاريخ العلم وكيفية المواجهة بين العلماء والخصوم سوف يجد أنه كلما ظهرت شبهة أو مسألة ما تتصل بالعقيدة يتناولها العلماء بالتحليل والنقد والتفنيد، فلم تنشأ قضاياه دفعة واحدة ولا فى وقت واحد، وإنما كانت كل قضية مرتبطة بزمانها ومكانها وظروفها الاجتماعية والثقافية.

ففى زمن الحسن البصرى ظهرت مشكلة (مرتكب الكبيرة) وهو هل مؤمن أو كافر؟ وتفرع عن البحث فيها قضايا أخرى، **مثل**: قضية الإيمان والإسلام. وعلاقة العمل بحقيقة الإيمان.

ثم قضية الإرجاء، وهل العمل جزء من الإيمان أو هو شرط كمال له أو شرط صحة؟

ثم ظهرت قضية الصفات وعلاقتها بالذات، ومنها تفرع الحديث عن مشكلة خلق القرآن ... الخ.

وفى هذه الفترة المتقدمة من تاريخ علم الكلام كان المعتزلة والمحدثون هم الذين يتولون الدفاع عن العقيدة الإسلامية مع اختلاف المنهج الذى كان يسلكه كل فريق منهم فى مهمته. فكان المحدثون يفضلون المنهج النقلى القائم على عرض القضية ودلائلها من الكتاب والسنة، ولا يفضلون إقحام العقل فى هذه المسائل الغيبية.بينما كان المنهج الذى يفضله المعتزلة هو مخاطبة الخصوم بمنهجهم وبطريقتهم العقلية، فأخذوا بالمنهج القائم على مناقشة قضايا العقيدة بمنهج عقلى؛ حتى يقتنع الخصوم الذين لا يؤمنون لا بالكتاب ولا بالسنة، ومن هنا وجدوا فى المنهج العقلى طريقًا مناسبًا فى التعامل مع خصومهم من أهل الملل الأخرى.

* * *

المطلب الثانى
تحول وظيفة علم الكلام إلى خصومات بين الفرق

تمهيد:

يعلم المتخصصون فى علم الكلام أن هذا العلم قد قام بدوره الحضارى دفاعًا عن العقيدة الإسلامية، وأن علماءه الأوائل قد أبلوا فى ذلك بلاءً حسنًا، سواء متقدمو المعتزلة أم متقدمو الأشاعرة والماتريدية على سواء. وإن كل واحد من هؤلاء الأئمة الكبار قد قام بجهده وسع طاقته، مجتهدًا فى تجلية الحقيقة التى يعتقدونها ويؤمن بها، مستدلًّا على صحة رأيه بما شاء من النقل ومن العقل، ولا شك أن كلهم يشملهم ما يشمل كل البشر من الصواب والخطأ فى الأقوال والأفعال، فلا يجوز أن يدعى أحد العصمة لواحد منهم؛ سواء كان موافقًا له فى رأيه أم مخالفًا له، كما لا يجوز لأحد أن يشكك أو يتشكك فى نوايا واحد من هؤلاء الأئمة الكبار، ولا فى مقاصدهم وغاياتهم النبيلة من الانتصار للحق الذى يراه، والأولى أن نتجاوز عما وقع منهم من خطأ فى التعبير عن ذلك أو أى خطأ فى وسيلة الوصول إلى الرأى الحق الذى يراه؛ سواء وقع الخطأ منه فى منهج الاستدلال أو فى مقدمات الدليل أو فى نتائج المقدمات، فربما لم يكن قد بلغه الدليل الصحيح من الكتاب أو السنة، أو لم يصح عنده فهم النص أو سند الحديث، وكل ذلك وارد بل واقع بين علماء الكلام، وليس المقام هنا مقام تفصيل لذكر نماذج من الأمثلة الدالة على ذلك، **ومن هنا فإن شريعتنا تفرض علينا** أن نتعامل مع تراث الجميع من منطلق حسن الظن بالمؤمن، ولا يجوز شرعًا أن نشكك فى نوايا واحد منهم؛ حتى وإن كان يخالف ما نراه؛ لأن نوايا العباد – خاصة أهل العلم – يجب أن تحمل على أحسن المقاصد وأنبلها، وندع علم ذلك لعلَّام الغيوب، ويكفينا منهم أن نتعامل مع الآراء والأقوال والمواقف

بالحكم لها أو الحكم عليها بالخطأ أو الصواب دون أن نتجاوز ذلك إلى الحكم على نوايا العلماء ومقاصدهم؛ لأن ذلك مدخل إلى باب خطير من الأحكام لا يملك صاحبها دليلًا عليها إلا مخالفة الرأى وادعاء العصمة لنفسه ولرأيه. وهذا منزلق خطير لا يجوز لأحد شرعًا ولا عقلًا أن يدعى لنفسه ذلك.

لقد غلب على المتأخرين من علماء الكلام التعصُّب للمذهب ومحاولة الانتصار له والغلبة على المخالف، وربما يشعرك المنهج الجدلى الذى تجده فى معظم مؤلفات الفرق الكلامية أن محاولة الغلبة على الخصم ربما كانت هى المقصد والهدف، وليس الوصول إلى الحق فى ذاته وتجليته.

وهذه الظاهرة قد لفتت نظر الإمام الغزالى من قبل، وحذَّر منها ونبَّه إلى عواقبها الخطيرة وأثرها السيئ فى الإعراض عن الحق حين يأتى على لسان الخصم، وأنكر عليهم المسارعة باتهام المخالف ورميه بالكفر والخروج عن الملة وادعاء العصمة للمذهب أو لشيخ المذهب مع أن ذلك لم يكن منهج المتقدمين فى الحوار مع المخالف.

لقد وضع الغزالى كتابه « فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة» وناقش فيه هذه الظاهرة بمنهج علمى رائع، بيَّن لأصحابه من الأشاعرة أن الحق ليس حكرًا على مذهب بعينه ولا وقفًا على إمام بعينه، ولا يحق لواحد أن يدعى العصمة لشيخه، أو يدعى احتكار الحق فى مذهبه والباطل فى غيره، ولقد أشار الغزالى إلى ذلك فى مقدمة الكتاب فقال لمحاوره المتعصب لمذهبه: ... خاطب نفسك وصاحبك، وطالبه بحد الكفر (ما هو ؟) فإن زعم أن حد الكفر ما يخالف مذهب الأشعرى أو مذهب المعتزلى أو مذهب الحنبلى أو غيرهم، فاعلم أنه غر بليد قد قيَّده التقليد، فهو أعمى من العميان فلا تضيع بإصلاحه الزمان، وناهيك حجة فى إفحامه مقابلة دعواه بدعوى خصومه؛ إذ لا يجد بين نفسه وبين سائر المقلدين المخالفين فرقًا

وفضلًا ... فاسأله من أين ثبت له أن يكون الحق وقفًا عليه حتى قضى يكفر غيره ... ولما كان الحق وقفًا على أحدهما دون الآخر ... هل ذلك لمجرد السبق الزمنى .. فقد سبق الأشعرى رجالات المعتزلة. هل ذلك لمزيد من الفضل والعلم فبأى ميزان استطاع أن يزن به أقدار العلماء وعلمهم؛ حتى قضى بأن أحدهما أفضل من الآخر؟ ويسأل الغزالى الأشاعرة سؤالًا منكرًا عليهم موقفهم من المعتزلة، فيقول: ما بالهم ينكرون على المعتزلة مذهبهم فى الصفات وقولهم أنها ليست زائدة على الذات، ويحكمون بكفرهم بدعوى أن الذات واحدة، ويصدر عنها فائدة العلم والقدرة والحياة. وهذه حقائق مختلفة بالحد، والحقيقة والحقائق المختلفة يستحيل أن تقوم بالذات الواحدة .. وما بالهم لا ينكرون على الأشعرى قوله: إن الكلام صفة زائدة على الذات قائمة بالذات .. ومع كونه واحدًا هو توراة موسى وإنجيل عيسى وقرآن محمد. وهى حقائق مختلفة[1]. ما الفرق إذن بين الموقفين؟ إلا التعصُّب الأعمى والتقليد للمذهب.

ويكاد الغزالى يعلن يأسه من علاج هذه الظاهرة التى تفشت بين أتباع المذاهب كلها، وصرَّح بأن الحجاج الدائر بين المقلدين نوع من الفضول فى القول، والمشتغل به كضارب ليل فى عماية، ومحاولة إصلاحه نوع من الضرب على الحديد البارد، ولا يصلح العطار ما أفسده الدهر، ومن أراد الإنصاف فليعلم أن من جعل الحق وقفًا على واحد من النُّظَّار بعينه فهو إلى الكفر والتناقض أقرب؛ أما الكفر فلأنه نزل متبوعه منزلة المعصوم من الزلل الذى لا يثبت الإيمان إلا بموافقته، ولا يلزم الكفر إلا بمخالفته، وأما التناقض فلأن كل واحد من النُّظَّار يوجب النظر وأنه لا يرى فى نظرك إلا ما رأيت – وكل ما رأيته حجة على الآخرين المخالفين لك[2].

(١) فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة: ص١٤٨ مجموعة القصور العوالى .
(٢) نفس الصفحة .

والأولى بهؤلاء جميعًا هو الكفّ عن التكفير للمخالف لهم؛ لأن المبادرة بالتكفير إنما تغلب على من يغلب عليهم طباع الجهل، والكف عن تكفير أهل القبلة وصية الرسول لأمته ماداموا مقرين بالأصول والثوابت التى حددها علماء الأمة ونصت عليها ظواهر الشريعة. والمبادرة إلى تكفير من يخالف الأشعرى أو غيره جهل ومجازفة.

لقد تعجَّب الغزالى من شدة التعصُّب للمذهب الذى يعمى صاحبه عن رؤية الحق ويخرجه عن حد الإنصاف والعدل فى الأحكام والموقف من المخالف، ويكفر مخالفه لمجرد المخالفة ويشتد نكيره حين يقرأ لبعضهم **قوله**: (إنما أكفر من يكفرنى من الفرق. ومن لا يكفرنى فلا) [1]. ولقد سيطر المنهج الجدلى على حوار الفرق الكلامية حتى أضعف الوظيفة الأساسية لعلم الكلام. وتحولت هذه الوظيفة المهمة على أيدى المقلدين للمذاهب إلى ساحة من الجدل العنيف الذى يدل على التربُّص بالآخر وتصيُّد الأخطاء له بدلًا من التعاون المطلوب بين الفرق المختلفة فى مواجهة المتربصين بالعقيدة ومسائلها، وأصبح الهدف الأكبر لكل مقلد هو الانتصار للمذهب ودَحْض رأى المذهب الآخر؛ مما أسس لنوع من التعصُّب التاريخى بين مقلدى هذه المذاهب ضد بعضهم البعض مازال المسلمون يكتون بنارها الآن بين طلبة العلم وفى قاعات الدرس وبين المتخصصين، ومما يؤسف له حقًّا أن المعاصرين لم يستطيعوا أن يتخلصوا من هذه العصبية المذهبية؛ بل يعملون على تلقينها لأتباعهم من طلبة العلم. وهذا ما عليه جمهور المقلدين للمذاهب الكلامية إلى الآن.

لقد أزعجت هذه الظاهرة السيئة الإمام الغزالى وهو قامة كبيرة فى تاريخ المذهب الأشعرى، ووضع من أجلها كتابه المشهور بـ «فيصل التفرقة بين الإسلام

(١) ص ١٨٠ . ونسب الإمام ابن تيمية هذا القول إلى الأستاذ أبو إسحاق . انظر ص٧٧ من تقريب العقل والنقل .

والزندقة» وانتهى فيه إلى هذا الرأى (وإذا تركنا المداهنة ومراقبة الجانب صرَّحنا بأن الخوض فى الكلام حرام لكثرة الآفة فيه؛ إلا لأحد شخصين:

الأول: رجل وقعت له شبهة ليست تزول عن قلبه بكلام قريب وعظى ... فيجوز أن يكون القول المرتب الكلامى رافعًا لشبهته ودواء له ...

والثانى: شخص كامل العقل، راسخ القدم فى الدين، ثابت الإيمان ...يريد أن يحصّل هذه الصنعة ليداوى بها مريضًا إذا وقعت له شبهة، وليفحم بها مبتدعًا ... بل الإيمان المستفاد من الدليل الكلامى ضعيف جدًّا مشرف على التزلزل بكل شبهة[1].

هذه تجربة الغزالى مع علماء الكلام المقلدين منهم للمذهب المتعصبين له. أردت من إيراد هذا الموقف أن نوضح للمقلدين فى هذا العصر أن الإمام الغزالى حين تناول هذه الظاهرة بنظر علمى نقدى منصف لم يكن رافضًا لعلم الكلام البرهانى الذى ندب إليه الشرع ولا رافضًا لوظيفة علم الكلام فى البرهنة الصحيحة على العقائد الإسلامية، وإنما كان موقفه تعبيرًا عن رفضه للمنهج الجدلى الذى يسلكه المتكلمون رفضًا للتعصُّب المذموم للمذهب والتقليد الأعمى للآراء والدفاع عنها إن حقًّا وإن باطلًا، وموقف الغزالى ليس بدعًا فى ذلك، فلم يكن وحده رافضًا لهذا التعصُّب المذهبى والمنهج الجدلى ومحذرًا منه، وإنما قال بذلك ابن رشد فى كتابه «مناهج الأدلة»، وابن تيمية فى كتابه «درء تعارض العقل والنقل»، حيث حذَّر رحمه الله من مخاطر التعصُّب المذهبى والتطرُّف فى الحكم على المخالف فى الرأى فى مواضع كثيرة من مؤلفاته.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية ناقلًا عن الأئمة الكبار رأيهم فى ذلك:«فتكفير المعين بحيث يحكم عليه أنه من الكفار لا يجوز الإقدام عليه إلا بعد أن تقوم على

(١) ص١٧٤ .

أحدهم الحجة الرسالية التى يتبين بها أنهم مخالفون للرسل، فليس لأحد أن يكفر أحدًا من المسلمين وإن أخطأ أو غلط حتى تقام عليه الحجة، ويتبين له المحجة، ومن ثبت إيمانه بيقين لم يزل عنه بالشك؛ بل لا يزول إلا بعد إقامة الحجة وإزالة الشبهة.

وقد اتفق أهل السنة والجماعة على أن علماء المسلمين؛ لا يجوز تكفيرهم بمجرد الخطأ المحض؛ بل كل أحد يؤخذ من قوله ويرد عليه، وليس من يرد كلامه لخطأ أخطأه يكفر أو يفسق أو يؤثم، ودفع التكفير عن علماء المسلمين وإن أخطأوا هو من أحق الأغراض الشرعية بالمراعاة، فإن تسليط الجهال والمتعالمين على تكفير المسلمين من أعظم المنكرات؛ ونسبة أقوالهم هذه إلى علماء السنة وسلف الأمة هو أشد نكرانًا وأعظم بهتانًا، فمن كفَّر المسلمين أو استحل دماءهم ببدعة ابتدعها ليست فى كتاب الله ولا فى سنة رسوله، فإنه يجب نهيه عن ذلك، وعقوبته بما يزجره ولو بالقتل أو القتال، فإنه إذا عوقب المعتدون من جميع الطوائف كان ذلك مما يصلح به حال الأمة[1].

وقد أشار إلى ذلك ابن القيم فى العديد من مؤلفاته. وهذا ما دعا إليه فى العصر الحديث الإمام محمد عبده ومدرسته أمثال رشيد رضا، وعبد الحليم محمود ومدرسة مصطفى عبد الرازق.

إعادة القراءة لعلم الكلام

أ - قراءة مقاصدية:

انتقل من هذه النقطة التى أراها مهمة إلى واقع علم الكلام بين المعاصرين المقلدين للمذاهب، فلقد ورثوا هذا العلم شامخًا بموضوعه على بقية العلوم الأخرى. فهو أشرف العلوم الإسلامية وأعلاها قدرًا؛ لأن شرف العلم مستمد من

(١) **راجع**: الفتاوى ١٢/ ٤٦٦-٥٠٠، **وانظر**: منهج السلف بين العقل والتقليد: د/ محمد السيد الجليند، ص٢٣-٢٤ .

موضوعه، وليس هناك علم أعظم شأنًا ولا أعلى قدرًا من علم الكلام الذى يهتم بالبحث (فيما يجب لله سبحانه وما يجوز وما يستحيل). وقد عرفه العلماء بما يحدد وظيفته فى حراسة العقيدة الإسلامية من التشويش وإثارة الشبهات.

صرح بذلك الفارابى (ت٣٤٠هـ) من الفلاسفة، والغزالى من الأشاعرة. فالفارابى يجعل مهمته الدفاع عن الملة وتزييف الأقاويل المخالفة لها[١].

بينما يرى الغزالى أن من وظيفة علم الكلام (... حراسة قلوب العوام عن التشويش، ومهمة عالم الكلام هى حراسة الدين على قلوب العوام، وأن موقع المتكلم يساوى موقع الحارس فى طريق الحج، فإذا تجرد الحارس لمجرد الحراسة فقط لم يكن من جملة الحجاج، كذلك المتكلم إن تجرد للمناظرة والجدل ولم يسلك طريق الآخرة ولم يشتغل بتعهد القلب وصلاحه لم يكن من جملة علماء الدين أصلًا. وليس عند المتكلم من الدين إلا العقيدة التى يشاركه فيها سائر العوام ... وإنما يتميز عن العامى بصناعة المجادلة والحراسة[٢].

وإذا استقرأنا تعريفات علم الكلام فى مؤلفات الأئمة المعنيين بذلك أمثال الفارابى وابن خلدون (ت٧٨٤هـ) والتفتازانى (ت٧٩٤هـ) والشعرانى (ت٩٧٦هـ) وغيرهم سوف نجدها كلها تحوم حول تحديد وظيفة هذا العلم فى مهمتين أساسيتين:

١- عرض مسائل العقيدة فى الإلهيات والنبوات والسمعيات بأدلتها الواضحة من الكتاب والسنة.

٢- الدفاع عن هذه العقيدة فى مسائلها ودلائلها ضد المخالفين لها؛ سواء

(١) إحصاء العلوم ص١٠٧ .

(٢) إحياء علوم الدين ١/ ٣٠ وانظر من ٧١- ٧٣ نقلًا عن عوامل وأهداف علم الكلام – د/ يحيى فرغل ص٣٠٦- ٣٠٧ ، وقد عرض المرحوم د/ يحيى فرغل تعريفات كثيرة لعلم الكلام فلتراجع لمن أراد .

كانوا أهل ملل وضعية كالمجوس والثنوية والدهريين والطبائعيين .. أم أهل كتاب كاليهود والنصارى.

وهذا يعنى أن مهمة عالم الكلام تتجلى فى:

أ- البرهنة على صحة مسائل العقيدة من الكتاب والسنة والبراهين العقلية.

ب- مواجهة المخالفين لها من أصحاب الشبهات وأهل الملل الأخرى ببيان فساد عقائدهم وتقديم العقيدة الإسلامية لهم بأسلوب برهانى.

ومن المعلوم أن العقيدة الإسلامية عبارة عن مسائل ودلائل هذه المسائل، وأصول العقيدة قد ورد بها الكتاب والسنة، ولا يسع أحد من علماء الكلام أو غيرهم أن يزيد عليها أو ينقص منها. وقد حدد القرآن الكريم مسائلها فى قوله تعالى: ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾ ﴾ (١). وقال سبحانه: ﴿ ۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ ﴾ (٢).

وفى حديث الرسول ﷺ المشهور عن أَبِى هُرَيْرَةَ قَالَ:كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَوْمًا

(١) سورة البقرة: ٢٥٨-٢٨٦ .

(٢) سورة البقرة: ١٧٧ .

بَارِزًا لِلنَّاسِ فَأَتَاهُ رَجُلٌ: فَقَالَ يَا رَسُولَ الله مَا الإِيمَانُ ؟ قَالَ: « أَنْ تُؤْمِنَ بالله وَمَلاَئِكَتِهِ وَكِتَابِهِ وَلِقَائِهِ وَرُسُلِهِ وَتُؤْمِنَ بِالْبَعْثِ الآخِرِ » . قَالَ: يَا رَسُولَ الله، مَا الإِسْلاَمُ؟ قَالَ: « الإِسْلاَمُ أَنْ تَعْبُدَ اللهَ وَلاَ تُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَتُقِيمَ الصَّلاَةَ الْمَكْتُوبَةَ وَتُؤَدِّىَ الزَّكَاةَ الْمَفْرُوضَةَ وَتَصُومَ رَمَضَانَ » . قَالَ: يَا رَسُولَ الله، مَا الإِحْسَانُ؟ قَالَ: « أَنْ تَعْبُدَ الله كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنَّكَ إِنْ لاَ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ » . قَالَ: يَا رَسُولَ الله ، مَتَى السَّاعَةُ؟ قَالَ: « مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ وَلَكِنْ سَأُحَدِّثُكَ عَنْ أَشْرَاطِهَا إِذَا وَلَدَتِ الأَمَةُ رَبَّهَا فَذَاكَ مِنْ أَشْرَاطِهَا، وَإِذَا كَانَتِ الْعُرَاةُ الْحُفَاةُ رُءُوسَ النَّاسِ فَذَاكَ مِنْ أَشْرَاطِهَا، وَإِذَا تَطَاوَلَ رِعَاءُ الْبَهْمِ فِى الْبُنْيَانِ فَذَاكَ مِنْ أَشْرَاطِهَا، فِى خَمْسٍ لاَ يَعْلَمُهُنَّ إِلاَّ اللهُ » . ثُمَّ تَلاَ صلى الله عليه وسلم: ﴿ **إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ** ﴿٣٤﴾ ﴾ [1] » . قَالَ: ثُمَّ أَدْبَرَ الرَّجُلُ فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: « رُدُّوا عَلَىَّ الرَّجُلَ » . فَأَخَذُوا لِيَرُدُّوهُ فَلَمْ يَرَوْا شَيْئًا . فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: « هَذَا جِبْرِيلُ جَاءَ لِيُعَلِّمَ النَّاسَ دِينَهُمْ » [2].

وهذه الأصول التى وردت بها النصوص تمثل أصول العقيدة وأركانها، وكانت شبهات المنكرين متنوعة ومتعددة، وتختلف من زمان إلى زمان، ومن ثقافة إلى ثقافة، ومهمة عالم الكلام تجسدت فى متابعة هذه الشبهات وتناولها فهمًا وتمحيصًا وتفنيدًا لها بمنهج يبين للمخالف فساد شبهته، ويحقق له أهداف علم الكلام فى تقديم صحيح العقيدة بأدلتها الواضحة، ولم يكن هدفه الجمود على مذهب بعينه أو التعصُّب لرأى بعينه أو إمام بعينه، وإنما كان هدفه بيان فساد رأى المخالف والوصول إلى الحق الذى ينشده. وربما كان موقف الغزالى فى بيان «تهافت

(١) سورة لقمان: ٣٤ .

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه كتاب الإيمان حديث رقم ٥٠ وغيره من المواضع، وأخرجه مسلم كتاب الإيمان، حديث رقم ١٠٦ .

الفلاسفة» مثالًا يحتذى فى ذلك، فلم يتوقف الغزالى فى حواره مع الفلاسفة عند المذهب الأشعرى الذى يميل إليه ولا عند رأيه الخاص بتقليد الأشاعرة لشيخهم، بل كان يرى وجوب مواجهة الفلاسفة بكل دليل يراه صوابًا ولو كان على لسان مخالفيه من المعتزالة والكرامية وغيرهم. يقول الغزالى: « ... فأبطل عليهم ما اعتقدوه مقطوعًا به بإلزامات مختلفة، فألزمهم تارة مذهب المعتزلة، وأخرى مذهب الكرامية، وطورا مذهب الواقفية، ولا انتهض ذابًّا عن مذهب مخصوص، بل أجعل جميع الفرق إلبًا واحدًا عليهم، ونتظاهر عليهم، فعند الشدائد تذهب الأحقاد»[1].

إن موقف الغزالى هنا موقف تربوى تعليمى للذين يتعصبون للمذاهب ويتابعونهم على أنها معصومة من الخطأ وما سواها دائمًا على الباطل، إنه يعلم المتعصبين أن آفة الرأى هو التعصُّب؛ لأنه يعمى عن رؤية الحق ويدعو إلى رفضه أحيانًا مادام يأتى على لسان الخصم.

ب - قراءة معاصرة:

أمر آخر أشير إليه فى هذا المقام وهو إن موقف علماء الكلام المعاصرين يختلف كثيرًا عن موقف المتقدمين الأوائل من حيث أداء وظيفة علم الكلام المعاصرة. ومن حيث الجمود على القضايا التقليدية التى واكبت عصر النشأة لعلم الكلام. فمازال عالم الكلام المعاصر يردد أقوال القدماء حول قضايا قديمة عاشها القدماء، ويثير قضايا خلافية مذهبية أثارها القدماء، ويحيى – شاء أم أبى – بين الشباب عصبية مذهبية أثرت بدورها فى ظاهرة التطرف التى يعيشها المشتغلون بالعلوم الشرعية من الشباب.

إن المرحلة التاريخية التى يعيشها المسلم المعاصر الآن لا نجد لها نظيرًا فى تاريخ الأمة الإسلامية. إنها حالة استثنائية فى تاريخ المسلمين، حالة الضعف والخور

(١) تهافت الفلاسفة: المقدمة الثالثة، ط دار المعارف بتحقيق د/ سليمان دنيا، ص٤٢ .

والتشرذم، والتشتُّت السياسى، والتعصُّب المذهبى، والاقتتال الداخلى، وإعجاب كل ذى رأى برأيه؛ فضلًا عن أثر العوامل السياسية التى يستعملها الاستعمار فى ازدياد الفرقة واتساع دوائر الخلاف بين الأقطار الإسلامية وفى داخل كل قطر، إنها حالة شاذة ومرحلة استثنائية أبرزتها وساعدت عليها عوامل التفرق المذهبى والتعصب الطائفى الذى سيَّطر على عقول الشباب فى هذه المرحلة، وأصبحوا يوالون ويعادون على أقوال مزعومة وأئمة موهومة، ويحسبون أنهم يحسنون صنعًا، ورفعوا شعار الرفض لكل مخالف لهم ، مدعين العصمة لأئمتهم وآرائهم، وبضاعة معظمهم من العلم مزجاة، وربما كانت أصولهم بمصادر التشريع مقطوعة. ولا يخالجنى شك فى أن معظم هؤلاء حسن النية وحسن المقصد والغاية؛ لكنه ورث هذه التركة التراثية، وهى فى حالة الضعف والتمزُّق والتشتُّت فى الآراء والأهداف والمقاصد، ولم يجد بين يديه من ينقذه من هذه الحالة المرضية التى يعيشها، وإنما وجد فى قاعات الدرس الأكاديمى من يدرس له العقيدة على المذهب الذى يرتضيه شيخه ويعلمه ويحذره مما عداه ويرفضه فنشأ الطالب محبًّا لما أملاه عليه شيخه كارهًا رافضًا لما حذره منه شيخه ومعلمه. دون أن ينصحه الشيخ والمعلم بالقراءة، ثم القراءة، ثم القراءة، ثم الفهم والنقد لكل ما يقرأ ويتعلم؛ لأنه ليس هناك من يدعى العصمة لنفسه أو لرأيه أو لشيخه، ولا من يدعى أن الولاية لمذهب ما هى ولاية لله ورسوله.

إن الخلافات المذهبية التى درسناها لأبنائنا فى قاعات الدرس الأكاديمى قد انعكس أثارها السلبى على سلوكهم وفى علاقاتهم الاجتماعية لبعضهم البعض، كما ظهر أثرها السيئ فى المجتمع خلال الندوات والمؤتمرات الثقافية.

إننا حين ندعو إلى إعادة قراءة علم الكلام نريد بذلك العودة إلى إحياء وظيفته الأساسية وهى الدفاع عن صحيح العقيدة والدفاع عنها ضد خصوم الإسلام والمعاندين له؛ خاصة الذين يثيرون الكثير من الشكوك والشبهات حول تخلف

المسلمين، وربط ذلك بالإسلام، والذين يقولون: إن القرآن الكريم يتناقض مع العلم أو يكبل العقل عن حرية التفكير ... الخ. هذه الدعاوى والافتراءات التى توجه إلى الإسلام فى عصرنا هذا. من المنتسبين إليه ومن أعدائه على سواء. إننا حين ندعو إلى إعادة القراءة لعلم الكلام فإننا لا ندعو إلى رفض الماضى، ولا رفض تراث القدماء من علماء الكلام، لكن الذى ندعو إليه أن يعيش عالم الكلام المعاصر مشكلات العصر، ولا يعيش فى صومعته بمشكلات القدماء وقضاياهم، إننا يجب أن نستصحب وظيفة علم الكلام الأساسية ونحسن إقامتها فى مواجهة مشكلات عصرنا، فنفعل كما فعل القدماء فى مشكلاتهم حين واجهوها بأمانة وإخلاص وصدق دون تبادل اتهامات ولا رمى بالكفر أو الزندقة كما يفعل المتعصبون الآن.

إن إعادة القراءة لعلم الكلام يجب أن يمر بمرحلتين:

١- **المرحلة الأولى** قراءة مقاصدية تصالحية نركز فيها على إظهار المقاصد والغايات المشروعة التى يسعى علماء الكلام إلى بيانها وتثبيتها فى القضايا الخلافية والمشكلات الكلامية التى تختلف فيها آراء المتكلمين ومواقف الفرق الإسلامية. نركز فى ذلك على الهدف والغاية التى يسعى إلى تثبيتها. وهل هى غاية مشروعة وهدف مقصود من الشارع ندب إليه ونبه إليه أم هو هدف زائف وغاية غير مشروعة، حذر منها الشرع ونهى عنها، نبحث فى ذلك عن عوامل الاتفاق ونؤيدها وننميها فى ضوء وحدة الهدف والغاية، ولا ينبغى أن نتوقف عند مجرد اختلاف الوسائل والأدلة التى يأخذ بها هذا المتكلم أو ذاك. ولا نتوقف عند (ثقافة الإلزامات) ما يلزم المتكلم عن رأيه وقوله. وما أكثر الإلزامات التى يتبادلها المتكلمون بناءً على رأيهم، وقد يخطئ المتكلم فى الاستدلال على مقصده الصحيح المشروع، وقد يخطئ فى فهم النص وفى طريقة

الاستدلال، وقد لا يكون الدليل قد وقف عليه ولا علمه، وقد يخطئ فى وضع المقدمات أو فى النتيجة، أو فى لزوم النتيجة عن المقدمات .. كل ذلك وارد وواقع بين المتكلمين، وواقع فى مؤلفات الكثير منهم، وليس من الإنصاف أن يترصد المقلدون للمذاهب أخطاء هؤلاء الأئمة الكبار، ويتخذ من ذلك مطعنًا فى شخصية الإمام وفى عقيدته أو فى تراثه كله، فيرفضه جملة وتفصيلًا. هذا أمر واقع بين المتعصبين للمذاهب الكلامية.

إن الإنصاف يقضى أن لا نسيء الظن بهم ولا نطعن فى مقاصدهم وغاياتهم، والأولى أن نقول فلان أحسن القصد والغاية؛ لكن أخطأ فى الدليل أو طريقة الاستدلال، فإن مقصد المتكلم أمر مرتبط بنيته وإرادته، وهذا أمر موكول إلى الله، ولا يجوز أن نتخذ من الخطأ فى الوسيلة والاستدلال هدفًا ومطعنًا فى عقيدة العالم ولا فى نيته ومقصده.

٢- **أمر آخر** أود الإشارة إليه وهو معظم القضايا الخلافية فى علم الكلام لا تمس أصلًا من أصول العقيدة التى أجمع عليها كل علماء الكلام على اختلاف مذاهبهم. والخلاف يدور حول أمور تفصيلية طرحها المتكلمون على بعضهم البعض من واقع قياس عالم الغيب على عالم الشهادة، وهذا القياس كان بابًا واسعًا نفذ خلاله كثير من الأسئلة التفصيلية المتعلقة بالأصول. ولو تتبعت هذه الأسئلة عند جميع الفرق الإسلامية لا تجد واحدًا منها العلم به له أثر فاعل لا فى زيادة الإيمان ولا فى نقصانه عند المسلم. بل أثره يبدو واضحًا فى إثارة الخلاف بين الفرق الكلامية وبين أبناء الفرقة الواحدة. ولو كان العلم به مطلوبًا على سبيل الوجوب أو الندب لنبَّه إليه الرسول ﷺ وأمر الأمة به، وأشار إليه على

سبيل الندب أو الوجوب، كما أشار إلى النوافل الراتبة لجبر الخلل فى الفرائض، لكن الرسول ﷺ لم يتكلم فى ذلك لا نفيًا ولا إثباتًا ولا ندب إليه؛ بل إن روح النصوص حذرت من ذلك. وسوف أضع أمام القارئ بعض القضايا الكبرى التى تمثل جوهر الخلاف بين الفرق الكلامية، وعلى القارئ أن يتساءل حول أسباب الخلاف فى كل قضية منها، هل هو سبب حقيقى له أثر فى زيادة الإيمان ونقصانه أم هو خلاف لا دخل له فى أصل الاعتقاد ولا يمس جوهر العقيدة. وبالتالى لابد أن تتساءل ما هى فائدة إثارة هذه الخلافات الآن؟

ومن أمثلة القضايا الخلافية بين المذاهب:

١ - هل أفعال الله تعالى تعلل بالحكمة أو لا تعلل؟

فالذين قالوا بتعليل أفعاله تعالى قالوا: إن الله تعالى حكيم فى فعله حكيم فى أمره حكيم فى نهيه، فلا يأمر وينهى ولا يفعل ويترك إلا لحكمة إلهية لأجلها فعل ولأجلها أمر ونهى. علم ذلك من علمه وجهل ذلك من جهله، وعدم العلم بالحكمة فى كل فعل أو فى كل أمر لا يلغيها؛ وإنما يدل على جهلنا بها؛ لأن خلو الفعل أو الأمر من حكمة مقصودة لأجلها أمر ونهى، ولأجلها فعل يعنى أن الأمر والنهى أو الفعل كان عبثًا. والله تعالى منزه عن ذلك، قال تعالى: ﴿لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [(١)].

وقال سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [(٢)].

وقال سبحانه: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾﴾ [(٣)].

---

(١) سورة الأنبياء: ١٧-١٨ .

(٢) سورة الحجر: ٨٥ .

(٣) سورة المؤمنون: ١١٥ .

ودلائل القرآن والسنة على إثبات الحكمة فى كل أفعاله وأوامره كثيرة عن الحصر، هذا هو موقف القائلين بتعليل الأفعال الإلهية بالحكمة، وهذا هو هدفهم نفى العبث عن الفعل الإلهى وعن الأمر الإلهى، وإثبات الحكمة فى كل فعل إلهى وفى كل أمر إلهى؛ لأن من أسمائه الحسنى الحكيم. وهذا هدف نبيل ومقصد شرعى نبَّه إليه القرآن الكريم وأرشد إليه، ولا يجوز لمسلم أن ينفى الحكمة عن فعله أو أمره سبحانه وتعالى عن ذلك علوًا كبيرًا؛ لأن فى نفى الحكمة إثبات ضدها وهو العبث(١).

أما الذين قالوا بنفى القول بتعليل أفعاله سبحانه فقالوا: إن تعليل أفعاله بالحكمة يعنى القول بالغرض، وسمّوا الحكمة غرضًا، وقالوا: إن القول بتعليل أفعاله سبحانه يعنى القول بأن له سبحانه وتعالى غرضًا فيما يفعل وفيما يأمر. وسموا القول بالحكمة (القول بالغرض).

وهو سبحانه ليس له غرض يعود إليه فيما يفعل ولا فيما يأمر به أو ينهى عنه، وإنما هو المالك للملك يفعل فى ملكه ما يشاء ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون، والقول بتعليل الأفعال فيه قيد على طلاقة القدرة الإلهية بالغرض والعلة. وهذا لا يجوز عليه سبحانه فهم يقصدون بنفى التعليل والغرض إثبات كمال العزة والقيومية لله على ملكه وإثبات طلاقة القدرة وخلوها عن العلة والغرض فى الفعل والترك، فهو العزيز فيما يفعل ويترك، العزيز فيما يأمر وينهى، فلا يسأل سبحانه عما يفعل، وهذا هدف نبيل ومقصد شرعى ندب إليه الشرع وأشار إليه القرآن الكريم. ومن هنا نتعرف على مقاصد الطرفين وأهدافهما من القول بالتعليل أو نفى القول بالتعليل. فنجد الأهداف مشروعة والمقاصد نبيلة، لكن فهم إثبات المقاصد عند الطرفين مختلف عندهما تبعًا للمنطلق فى استعمال اللفظ، فالقائلون بتعليل أفعاله

(١) **انظر تفصيلات ذلك فى:** قضية الخير والشر، د/ محمد الجليند، ص١٤٣.

سبحانه يقولون بإثبات الحكمة، والذين نفوا القول بالتعليل يسمونها نفى الغرض وطلاقة القدرة. ولو سألت القائلين بالتعليل والحكمة. هل تقصدون بذلك عدم طلاقة القدرة وقيدها بالغرض لقالوا: حاشا لله أ ن يقول مسلم ذلك. لكنا أردنا بالقول بالحكمة والتعليل أن ننفى العبث عن فعله سبحانه ونثبت أنه حكيم فيما يفعل، حكيم فيما يأمر. ولو سألت النافين للقول بتعليل الأفعال الإلهية. هل تقصدون بذلك نفى القول إنه حكيم فى فعله تعالى وأمره. لقالوا لك: حاشا لله أن يقول مسلم ذلك، وإنما قصدنا إثبات كمال القيومية وكمال العزة وطلاقة القدرة.

وبهذا التحليل يظهر لك أن مقاصد الطرفين واحدة؛ وهو إثبات الكمال لله، وإثبات العزة والحكمة لله، ونفى العبث عن فعله.

وإذا كانت المقاصد واحدة والأهداف واحدة، ثم اختلفت مناهج الإثبات ودلائل الطرفين. فهل يكون الخلاف بينهما حينئذ خلافًا حقيقيًا جوهريًّا يمس أصول العقيدة أو هو خلاف شكلى لفظى. ولا أثر له فى صحة الاعتقاد أو فساده[1].

٢- مثال آخر. يرى المعتزلة ومن وافقهم أن الإنسان يحدث فعله بإرادته وقدرته التى خلقها الله فيه، وجعلها صالحة لفعل الشيء وضده، فهو يأتى بها الطاعة كما يفعل بها المعصية.

ويفسرون العدل الإلهى فى ضوء قياس عالم الغيب على عالم الشهادة، ويقولون: إن الإنسان يفعل الطاعة والمعصية بإرادته الحرة وقدرته الحادثة؛ ليكون مسئولًا أمام الله عما يفعل ويصح عقابه وثوابه على فعله.

ولا يجوز القول بأن الله يخلق أفعال الإنسان ويجبره عليها ثم يحاسبه عليها فى الآخرة؛ لأننا لو قلنا: إن الله خالق أفعال الإنسان لما كان للثواب والعقاب معنى،

(١) **انظر**: السابق ص ١٥٤ وما بعدها .

ولما كان هناك داعٍ لإرسال الرسل، ولما كان للثواب والعقاب فائدة، وقدموا أدلتهم من الكتاب والسنة، ومن الأدلة العقلية الكثيرة؛ ليثبتوا بها صحة موقفهم فى تحقيق معنى العدل الإلهى ويفندون رأى مخالفيهم، ولأنه لا يجوز عندهم أن يخلق الله أفعال عباده ثم يحاسبهم عليها فى الآخرة. هذا عندهم يتناقض مع مفهوم العدل، فالمقصد الأسمى عندهم فى هذا الموقف هو تحقيق معنى العدل الإلهى بحسب مفهومهم له. ونفى الظلم عن الله سبحانه وحتى لا يقال كيف يخلق الله فىّ أفعالى ويحاسبنى عليها... [1].

أما الذين قالوا: إن الله يخلق أفعال العباد خيرها وشرها فإنهم قصدوا بذلك إثبات طلاقة القدرة الإلهية فى هذا العالم. فالله خالق كل شيء دق أو عظم، ومنها أفعال العباد؛ لأن العبد لو كان خالقًا لأفعاله لكان شريكًا لله فى الخلق. كيف والعبد وفعله مخلوقان لله. وقدموا أدلتهم الكثيرة من النقل ومن العقل على صحة قولهم وفساد رأى مخالفيهم من المعتزلة. ومن يقرأ موقف الفريقين فى هذه القضية يجد أن الآية الواحدة يوظفها الطرفان كلٌّ لصالح موقفه. فهى محكمة عند أحد الطرفين وهى من قبيل المتشابه عند الطرف الآخر. والأمثلة على ذلك كثيرة ومتداولة بين الفرقتين.

لكن السؤال المهم هو: هل قصد المعتزلة بقولهم: إن الإنسان يخلق أفعاله بإرادته وقدرته التى خلقها الله فيه. هل يقصد بذلك أنه يقيد طلاقة القدرة الإلهية، أو القول بأن العبد يشارك الله فى الخلق؟

إن الجواب عندهم: حاشا لله أن يقول مسلم ذلك[2].

---

(١) **انظر تفصيل موقف المعتزلة وأدلتهم التفصيلية**: المغنى ٦/ ١٢٧، شرح الأصول الخمسة ص٣١٣، قضية الخير والشر لدى مفكرى الإسلام ص٣٩٩ ، د/ محمد السيد الجليند .

(٢) قضية الخير والشر لدى مفكرى الإسلام ص٤٣٠ وما بعدها

كيف وهم يقولون: إن قدرة العبد التى يقع بها الفعل مخلوقة لله فى العبد. لكن نحن نريد بذلك تحقيق معنى العدل الإلهى ونفى الظلم عن الله سبحانه.

وإذا سألت الأشاعرة هل تريدون بقولكم إن الله يخلق أفعال الإنسان أن الله يجبر العبد على المعصية ثم يعاقبه عليها فى الآخرة، فيقع منه الظلم. يقولون لك إن الله يفعل فى ملكه ما يشاء ولا يسمى ذلك ظلمًا؛ لأن الظلم عندهم فعل الإنسان فى غير ملكه، والله مالك كل شيء فيفعل فى ملكه ما يشاء، فلو عذب الطائع وأثاب العاصى لم يكن ذلك ظلمًا منه؛ لأنه سبحانه يفعل ما يشاء. ولو سألت سؤالًا مباشرًا: هل يقع الظلم من الله سبحانه وتعالى لقال لك: حاشا لله، ولا يظلم ربك أحدًا[1]؛ لأن مفهوم الظلم عندهم يختلف عن مفهوم الظلم عند المعتزلة.

فأنت ترى أن المقاصد والغايات عند الطرفين هى إثبات العدل وطلاقة القدرة ونفى الظلم. وكلها معانٍ نبيلة، ومقاصد مشروعة ومطلوبة.

لكن اختلفت مناهج الإثبات عند الطرفين حسب اختلاف مفهوم العدل ومفهوم الظلم عند كل منهما. فهل اختلاف الوسائل يؤثر فى المقاصد والأهداف المطلوبة. وهى كلها أهداف مشروعة كما سبق... ولذلك فإن السؤال المطروح: هل هذا الخلاف حقيقى جوهرى أو خلاف شكلى لفظى غير مؤثر فى صحيح العقيدة.

٣- مثال ثالث. قضية الصفات الإلهية وعلاقتها بالذات.

يجمع المتكلمون على أن الله تعالى موصوف بكل كمال يليق به سبحانه ومنزه عن كل نقص، وكل ما وصف الله نفسه به فى كتابه الكريم، وكل ما نزه نفسه عنه فى كتابه الكريم وجب الإيمان به جملة وتفصيلًا. وهذا محل اتفاق جميع الفرق الكلامية المعتبرة.

---

(١) **انظر تفصيلات موقف الأشاعر فى**: الإبانة للأشعرى ص٦١، الملل والنحل للشهرستانى ١/ ١٣٩، إحياء علوم الدين للغزالى ٢/ ١٩٥، **وانظر**: قضية الخير والشر ص٢٠٠-٢٠٨ .

لكن هناك من ظن منهم أن ظواهر الآيات القرآنية الخاصة بالصفات تقتضى تشبيه الخالق بالمخلوق. فتأول هذه الآيات بما ظنه تنزيهًا لله سبحانه عن المشابهة والمماثلة. وليس المعتزلة وحدهم بدعًا فى ذلك؛ بل متأخرو الأشاعرة قد شاركوا المعتزلة فى تأويل آيات الصفات... والقصد من ذلك كما سبق هو صرف الآية عن ظاهرها الذى يوهم التشبيه إلى معنى يليق بالله سبحانه. فالسمع والبصر عندهم هو العلم بالمسموع والمبصر، والاستواء على العرش هو الاستيلاء على الملك واليد هى النقمة والقدرة ... الخ.

أما الذين رفضوا التأويل فقالوا: إن الله تعالى وصف نفسه بهذه الصفات التى خاطبنا بها فى القرآن ويجب أن نؤمن بها على مراد الله منها، وإثبات ظواهرها على هذا المعنى لا يقتضى تشبيهًا ولا تمثيلًا؛ لأن هناك قانونًا حاكمًا فى هذه المسألة وفق قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [1] فالآية الكريمة أثبتت لله السمع والبصر، ونفت المماثلة بينه وبين خلقه فى ذلك، وهذا قانون عام يجب الأخذ به فى جميع الصفات الإلهية، فلا نصرف ظاهر الآية إلى معنى آخر، ولا نثبت مما ثلته لخلقه منها، وإنما نؤمن بها على مراد الله منها دون تحديد لكيفية معينة فيها .. فضلًا عن أن تأويل الآية إلى معنى آخر يعنى إثبات كيفية معينة للصفة المذكورة. والكيف عن الصفة مرفوع كما أن الكيف عن الذات مرفوع[2].

وقضية الصفات الإلهية وعلاقتها بالذات تعتبر من أكبر القضايا التى ثار حولها خلاف كبير بين المتأولين والمثبتين، أو بين أهل الإثبات وأهل التأويل. وكثر تبادل الاتهامات بينهما فأهل التأويل عند مخالفيهم معطلة ونفاة وأحيانًا ثنوية.

وأهل الإثبات عند مخالفيهم حشوية مشبهة ومجسمة.

ولو تجاوزنا موقفهم فى قضية المناهج والوسائل إلى موقفهم فى المقاصد

(١) سورة الشورى: ١١ .

(٢) **انظر** : موقف المتكلمين من الصفات الإلهية: ابن تيمية وموقفه من قضية التأويل ص٩٥-١١٥ .

والغايات لوجدنا الهدف واحدًا والغاية نبيلة والمقصد مشروعًا. فالكل يثبت لله كل كمال يليق به، والكل ينزه الله عن كل نقص نزَّه نفسه عنه فى كتابه، والكل يؤمن بذلك؛ لكن اختلفت مناهج الإثبات حسب ما توهمه البعض لمعنى الكمال ومعنى النقص الذى ذكرته الآية الكريمة. فظن البعض أن إثبات ظاهر الآية يؤدى إلى التشبيه فتأولها. وظن البعض الآخر أن ظاهر الآية لا يؤدى إلى التشبيه إذا فهمناها فى ضوء القانون العام ليس كمثله شيء فنثبتها لله على مراد الله منها وليس على ما نتوهمه بعقولنا، فالمقصد عند الجميع واحد، والغاية واحدة. وهنا نسأل: هل الخلاف هنا خلاف حقيقى أم هو خلاف شكلى لفظى.

ولو تتبعنا القضايا الخلافية الأخرى بين المتكلمين سوف نجد معظمها يدور حول الخلاف اللفظى واختلاف دلالة المصطلح، أو اختلاف النظرة إلى القضية الواحدة من متكلم إلى آخر، ولو حررنا مسائل الخلاف أو كما يقول رجال أصول الفقه تحقيق مناط الخلاف بين الفرق سوف نجد أن (الجهة منفكة) أو أن الخلاف لفظى. وهذا يشمل معظم المسائل الكبار **مثل**:

١- قضية الصلاح والأصلح.

٢- المعرفة هى عقلية أو شرعية.

٣- مفهوم القضاء والقدر (الكونى والدينى).

٤- الاستطاعة هل قبل الفعل أو مقارنة للفعل.

٥- مصطلح الإيمان والإسلام (بين المعنى اللغوى المعجمى والمعنى الاصطلاحى الشرعى).

إننى أدعو الباحثين المعاصرين إلى تتبع هذه المسائل وتحرير مناط الخلاف بين الفرق فى موقفهم من هذه القضايا ؛ليتبين لنا فى النهاية أن معظم هذه الخلافات

يدور حول اختلاف مفهوم المصطلح أو اختلاف النظرة إلى القضية الواحدة من زاوية إلى أخرى[1].

ومما هو جدير بالإشارة هنا أن يركز الباحثون المعاصرون على مواضع الاتفاق بين الآراء التى تبدو متعارضة، وبيان أن هذا التعارُض ليس جوهريًّا، ولا يمس صميم الاعتقاد بعد أن تبين لنا أن المقاصد واحدة وأن الغايات والأهداف محل إجماع بين المسلمين وليس بين المتكلمين وحدهم، وينبغى أن يتجاوز الجميع هذه الخلافات اللفظية، ويركزوا على وحدة الهدف ووحدة المقصد والغاية؛ كطريق ضرورى إلى وحدة الصف، ولمِّ الشمل الممزق، والتخلُّص من العصبيات المذهبية التى دفعت الشباب إلى التطرُّف ورفض الآخر. أو التعصُّب لشخص أو إمام موهوم. والرسول ﷺ قد حذرنا من ذلك فقال: «**لَيْسَ مِنَّا مَنْ دَعَا إِلَى عَصَبِيَّةٍ، وَلَيْسَ مِنَّا مَنْ قَاتَلَ عَلَى عَصَبِيَّةٍ، وَلَيْسَ مِنَّا مَنْ مَاتَ عَلَى عَصَبِيَّةٍ**»[2].

سؤال آخر لابد أن يطرحه علماء الكلام على أنفسهم:

ما علاقة معظم الأسئلة الخلافية بين علماء الكلام فى زيادة الإيمان ونقصانه؟ أو فى قوة اليقين بالله وضعفه؟

وإليك نموذج من هذه الأسئلة الخلافية:

١- هل الله تعالى يعلم بذاته أو يعلم بعلم زائد على الذات؟

٢- هل إرادة الله للحوادث أزلية ولم تزل أم هى حادثة؟

٣- هل علمه وإرادته تعالى للحوادث قديمة وهذا يعنى تعدد القدماء أم هى حادثة وهذا يعنى حلول الحوادث بذات الله القديمة؟

---

(١) **انظر**: مقدمة تمهيد لدراسة علم الكلام، د/ محمد السيد الجليند، ص٨-١١ .

(٢) رواه أبو داود بسنده فى السنن حديث رقم (٥١٢١) ط دار ابن حزم، بيروت .

٤- هل قدرة الإنسان على المعصية هى هى نفس قدرة الإنسان على الطاعة أم أن القدرة على الطاعة غير القدرة على المعصية؟

٥- هل القدرة سابقة على الفعل أو مقارنة للفعل؟

هذه أسئلة وغيرها كثير واردة فى علم الكلام... وأعود إلى السؤال السابق: ما علاقة هذه الأسئلة بالسلوك الإنسانى العملى فى الالتزام بالعقيدة أصولها وفروعها؟ هل يزداد المؤمن بها إيمانًا إذا علمها؟ وهل ينقض إيمانه إذا جهلها؟

وإذا كانت هذه الأسئلة لها أثرها العملى فى زيادة إيمان المؤمن أو زيادة اليقين بالله. ألم يكن الأولى أن الرسول ﷺ ينبهنا إليها ويرشدنا إليها ويبين لنا أثرها فى زيادة الإيمان كما أمرنا وأرشدنا وبيّن لنا أثر النوافل فى جبر الخلل الواقع فى أداء الفرائض من الصلوات وغيرها؟

إن معظم هذه الأسئلة مطروحة على العقل من واقع قياس عالم الغيب على عالم الشهادة، ومحاولة فهم قضايا الألوهية فى ضوء المفاهيم البشرية، وهذا مصدر الخلل وسبب من أسباب الخلاف بين الفرق، ولو تجاوز المعاصرون هذه المسائل الخلافية وركزوا على المقاصد والأهداف – وكلها مشروعة – عند الجميع لكان ذلك أولى بالاهتمام وجمع الكلمة ليتفرغ الجميع للمشكلات المعاصرة ومواجهتها بنفس الروح التى واجه بها القدماء مشكلات عصرهم.

* * *

المطلب الثالث
تجديد علم الكلام
(١)

يقصد بتجديد علم الكلام العودة إلى إحياء وظيفته الأساسية التى بدأ بها مسيرته التاريخية، هذه الوظيفة المهمة التى جسدها علماء الكلام فى تعريفاتهم للعلم ببيان وظيفته الأساسية فى عرض العقيدة الإسلامية والدفاع عنها ضد خصومها.

فهى وظيفة مركبة من موقف بنائى يتمثل فى عرض مسائل العقيدة (ما يجب لله سبحانه وما يجوز وما يستحيل، النبوة خصائصها، البعث، والسمعيات).

وموقف دفاعى يتمثل فى مواجهة أصحاب المذاهب والملل المخالفة، وتناول الشبهات والشكوك التى يثيرونها حول مسائل العقيدة فهمًا وتمحيصًا، ثم نقدًا وتفنيدًا، هذه الوظيفة التى استمد منها هذا العلم أهميته وعلو مكانته بين العلوم الإسلامية. **يقول الجاحظ** فى بيان أهمية العلم وعلو مكانته: « فلولا مكانته لم تثبت للرب ربوبية، ولا لنبى حجة، ولم يفصل بين حجة وشبهة، ولا بين الدليل وما يتخيل فى صورة الدليل، وبه تعرف الفرقة من الجماعة، والسنة من البدعة، والشذوذ من الاستقامة[1]، ووضع كتابه «الحيوان»، وصرح فى مقدمته أن أهمية النظر فى آيات الله الكونية، لا تقل عن أهمية النظر فى كتاب الله الكريم، فالقرآن كلامه سبحانه، والآيات الكونية فعله وخلقه وصنعته، وقد أقسم سبحانه فى آياته القرآنية بعظمة آياته الفعلية الكونية؛ لينبَّه أصحاب العقول إلى أهمية قراءة الكون فى الوصول إلى الخالق، والتعرُّف على مواطن تجليات صفاته وأفعاله من العلم والحكمة والقدرة

(١) الفصول المختارة على هامش كتاب الكامل للمبرد ٢/ ٣٢٩ نقلًا عن عوامل وأهداف نشأة علم الكلام – د/ يحيى فرغل، ص٣٠٨ هامش ٦ .

والإرادة، وإن اهتمام القرآن بعالم الشهادة وما فيه من آيات الحكمة والإتقان وحسن التدبير؛ لتكون برهانًا عقليًا عمليًا – وليس نظريًا – على مظاهر الإبداع وطلاقة القدرة، ويجمع المتكلم فى برهانه بين آيات الله الكونية فى عالم الشهادة وآيات الله القرآنية، ويستضيء بنور الله فى الآيتين معًا. فهذا كلامه فى آياته القولية، وهذا فعله فى آياته الكونية، وفعله يأتى مصدقًا لكلامه، ولا غناء لأحدهما عن قراءة الآخر.

وقد قام المتكلمون الأوائل بأداء هذه الوظيفة التى أشار إليها الجاحظ، ومارسوها علمًا وعملًا، ولم يتخلفوا عن مواكبة المشكلات التى ظهرت فى عصرهم، وتناولوها بالرد والتفنيد. **يقول القاضى عبد الجبار مؤرخًا لمسيرة المتكلمين الأوائل**: كان يجلس واصل بن عطاء بين تلامذته، ويملى عليهم مسائله فى الرد على الملحدين. وألَّف كتابًا فى الرد على الثنوية ترجَّمه بالألف مسألة، وأنه وجد منه جزء فيه ثمانين مسألة فى الرد على الثنوية[1].

وكان أبو الهذيل العلاف يناظر أصحاب النجوم، ويرد عليهم فى مجالس المأمون[2]، وأنه ناظر يهوديًا أنكر معجزات عيسى عليه السلام فى إحياء الموتى وإبراء المريض، ويتهمه عليه السلام بأنه ساحر[3].

ويحكى القاضى عبد الجبار أن الخليفة العباسى المهدى أنشأ دارًا مستقلة للبحث والرد على أهل العقائد الفاسدة ممن أسلموا من أهل البلاد التى فتحها المسلمون من الفرس والهند؛ خاصة الرد على الثنوية والملحدين الذين كثر عددهم بمعاونة ابن المقفع الذى اعتبره الخليفة المهدى عاملًا خطيرًا فى شيوع ظاهرة الإلحاد فى عصره[4].

---

(١) طبقات المعتزلة ص١٦٥ بتحقيق فؤاد سيد، ط الدار التونسية .

(٢) نفس المرجع ص٢٥٩ .

(٣) نفس المرجع ص٢٦٣ .

(٤) تاريخ الإلحاد فى الإسلام، جورج قنواتى، ترجمة د/ بدوى، ص٣٨ نقلًا عن نشأة علم الكلام، د/ يحيى فرغل .

(٢)

ومن يتبع تاريخ هذا العلم والقضايا التى تناولها علماؤه سوف **يلاحظ ما يأتى:**

أولًا: أن قضايا علم الكلام لم تنشأ كلها فى وقت واحد ولا فى مكان واحد، وإنما كان ظهورها التاريخى يختلف زمانًا ومكانًا بحسب ظروف البيئة التى تظهر فيها المشكلة.

ثانيًا: أن علماء الكلام لم يتوقفوا عن متابعة المشكلات التى تظهر أيًّا كان مكانها، وكانت متابعتهم لمشكلات عصرهم لا ترتبط بالمكان الذى يقيمون هم فيه؛ بل كانت حراسة العقيدة من التشويش عليها هى الهدف الأكبر بصرف النظر عن المكان الذى ظهرت فيه الشبهة أو صاحبها.

وظل الأمر على هذا النحو إلى القرن السادس تقريبًا، أو قبله بقليل. ثم تحولت وظيفة علم الكلام على يد المتأخرين إلى حوار ساخن بين الفرق الكلامية، واختزلوا وظيفة العلم فى مواجهة الفرق بعضهم بعضًا، كل ينتصر لمذهبه، ويعلى من شأن أتباعه وأئمته، ويدعى العصمة لرأيه، ويتهم المخالف له بالزندقة والبدعة إن لم يكن يتهمه بالكفر والإلحاد. وقد سبق أن أشرنا إلى ذلك تفصيلًا، وبيَّنا موقف الغزالى من هذه الظاهرة.

لقد توقف تاريخ علم الكلام منذ فترة ليست بالقصيرة عند مجرد القضايا التقليدية التى أثارها القدماء فى عصر النشأة، وأخذ المعاصرون بنفس المنهج الذى ورثوه عن متأخرى علم الكلام. فنفس القضايا تتكرر فى قاعات الدرس الأكاديمى، ونفس الردود المتبادلة بين الفرق، ونفس الاتهامات بين المخالفين للرأى والمذهب. وجمد هذا العلم العظيم، وجمدت وظيفته على يد المعاصرين أنفسهم عن تتبع مشكلات عصرهم وقضاياه، واكتفوا بحفظ آراء القدماء

والتنافس فيما بينهم فى حفظ الردود وكيفية المواجهة تحقيقًا للغلبة والانتصار للمذهب، وانصرف هؤلاء وأولئك عن مواجهة الخصوم الحقيقيين فى الخارج والداخل مكتفين بتحقيق الغلبة فيما بينهم، كلٌّ على الآخر الذى يخالفه.

إن الواقع المرير الذى يعيشه المسلمون فى عصرنا هذا قد مزقته العصبية المذهبية، وفرقته كلمة المتعصبين، وعبثت به أهواء المتطرفين أكثر مما عبثت به أهواء الساسة ومحترفو السياسة، وهذه الحالة التى يعيشها الشباب من تشتُّت الآراء والتعصُّب للمذهب قد أورثتهم حالة من التطرف الذى ينعكس أثره الاجتماعى فى السلوك، وتظهر أثاره السيئة فى العلاقات الأسرية والاجتماعية، ويشهد به الجميع فى معظم الأقطار الإسلامية.

ولو ألقيت نظرة على خريطة العالم الإسلامى جغرافيًا سوف نستطيع بسهولة أن تصنف أقطار العالم الإسلامى مذهبيًا. فهذا وطن أشعرى العقيدة، وذاك وطن ماتريدى المذهب، وثالث سلفى، ورابع تسوده الطرق الصوفية ... الخ. ومن المؤسف أن المسلمين الذى هاجروا من أوطانهم هربًا من واقعهم الاجتماعى أو السياسى إلى أوربا وأمريكا ذهبوا إلى هذه البلاد وهم يحملون معهم هذه الانتماءات المذهبية المتضاربة، ونقلوا إلى هذه البلاد هذه الخلافات المذهبية والعصبيات الجاهلية التى عاشوها فى أوطانهم الإسلامية، وأسسوا هناك المساجد المذهبية. وصاروا هناك عنوانًا لفرقة المسلمين وتعصبُّهم ضد بعضهم البعض. وصار الإسلام هناك ليس إسلامًا واحدًا، وإنما تعددت أسماؤه فهذا إسلام الأشاعرة، وذاك إسلام السلفيين، وثالث إسلام الصوفية. ووصل الأمر بهذا التشرذم أن أحدهم لا يصلى وراء من يخالفه فى المذهب أو الانتماء، ولا يصلى فى المساجد المخالفة لمذهبه.

ولا شك أن أتباع الفرق الكلامية قد أسهموا فى خلق هذا التعصُّب المذهبى

فى الداخل والخارج معًا ظنًّا منهم أن انتصارهم لرأى شيخهم أو لمذهبهم أنهم بذلك ينتصرون للإسلام ويدافعون عن عقيدته. وفى واقع الأمر أنهم لا للإسلام نصروا ولا لعدوه كسروا. وإنما أسهموا فى كسر شوكة المسلمين فى نظر أعداءهم، فاستباحوا حرماتهم فى كل مكان حلوا فيه.

وإذا كان سلاح السلطان مع المخالف سياسيًّا هو النفى والاعتقال فإن سلاح العلماء المذهبيين مع المخالف لهم هو التكفير أو التفسيق، وقد يستعين أصحاب الزمان من العلماء على المخالف لهم بسيف السلطان وبطشه.

وليس ما يحدث فى واقعنا المعاصر بعيدًا عن الأعين، أو غائبًا عن عقول المفكرين.

(٣)

إن تجديد علم الكلام يجب أن يتجاوز كل الخلافات المذهبية والمواقف التاريخية التى جسدت الغلو والتعصُّب والتطرُّف فى الأحكام والاتهامات المتبادلة بين الفرق الكلامية؛ ليعود إلى روح عقيدتنا السمحة التى شعارها (السلام مع النفس قبل السلام مع الغير).. ونتخلص من الولاء الزائف النابع من الأهواء المذهبية، ونجعل طلب الحق فى ذاته ولذاته هو الهدف والغاية – وذلك لا يكون إلا فى التمسك بالنص المعصوم فى قضايا العقيدة بعيدًا عن الأسئلة الفضولية – وما أكثرها فى علم الكلام – التى لا تزيد المؤمن إيمانًا ولا تنقص من إيمانه شيئًا إذا علمها أو جهلها؛ بل تثير من الشكوك والشبهات ما قد يعجز المتكلم نفسه عن إزالتها، ويكفينا فى هذه المسائل ما سار عليه الرسول ﷺ وصحابته، فلم تكن هذه الأسئلة تشغلهم، ولا شغلوا أنفسهم بالجواب عنها، وكفاهم فى ذلك قوله تعالى: ﴿ قُل لَّا يَعۡلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ ﴾ [1] وانشغلوا عن ذلك بالعمل،

(١) النمل: ٦٥ .

والعمل الجاد المتقن باعتباره الثمرة الطيبة لصحيح الاعتقاد.

إن تجديد علم الكلام يقتضى منا أن ننشغل الآن بمشكلات عصرنا التى توجع المسلمين صباحًا ومساءً بالطعن فى مصادر الإسلام الأولى والنيل من مقدساتهم بدلًا من الانكفاء على تكرار قضايا علم الكلام التاريخية والاقتصار عليها والتنافس فى حفظها تأييدًا لها أو معارضة.

وفى هذا المقام يجب أن يكون عالم الكلام المعاصر والمشتغلين به على دراية كاملة بمشكلات العصر وقضاياه، ويعرفون تمامًا من أين يؤتى الإسلام فى أصوله وفروعه، فليست مهمة عالم الكلام الآن قاصرة على الدفاع عن أصول العقيدة فقط، وإنما تمتد وتتسع لتشمل الدفاع عن الإسلام فى أصوله وفروعه على سواء، فليست مسائل الفروع إلا تطبيقًا عمليًّا للإيمان بالأصول والاعتقاد بها، وما أكثر الهجوم الذى ينال الإسلام فى عصرنا فى أصوله وفروعه على سواء.

ومن مهام المشتغلين بعلم الكلام المعاصر أن يتناول مستجدات هذا العصر من القضايا التى تتصل بالعقيدة وأصولها، والتى لم يكن لها حضور فى تاريخ علم الكلام قديمًا، ولم يتعرض لها القدماء؛ لأنها لم تكن تشغلهم فى واقعهم العملى كما هو شأن القضايا الكبرى التى تناولوها، فإن لكل عصر مشكلاته الثقافية وقضاياه المتشابكة.

ففى العصر العباسى أفرزت حركة الترجمة من اليونانية والفارسية إلى العربية قضية التوفيق بين العقل والدين أو بين الفلسفة اليونانية والدين، التى قام بها المدرسة المشائية وأوائل المعتزلة. وفى عصرنا الحاضر لم تعد القضية قاصرة على ثنائية العقل والنقل؛ ولكن الاحتكاك الثقافى بين الحضارات أفرزت لنا ثنائيات جديدة، تحتاج من عالم الكلام المعاصر أن يتوقف أمامها فهمًا لها وفقهًا لظروف نشأتها وعواملها التاريخية، ووعيًا بقصة الصراع بين هذه الثنائيات الجديدة وفى مقدمتها

ثنائية العلم والدين، القرآن والعلم وقصة الصراع بينهما، وما تولَّد عن هذا الصراع المزعوم من ثنائيات انعكست على العالم الإسلامى فى السياسة والاقتصاد والقانون والتعليم والثقافة. **مثل**: الدين والدولة. الدولة الدينية والدولة المدنية. العلمانية السياسية والثقافية ... الخ.

لقد ظهرت هذه الثنائيات فى أوربا كنتيجة حتمية لقصة الصراع بين الكنيسة والعلماء، الذين وقفوا ضد الجهل والخرافات التى كانت تفرضها الكنيسة على المجتمع الأوربى فى العصور الوسطى، وكل من عارضها من العلماء كان جزاؤه إما الطرد من رحمة الكنيسة أو الحرق أو النفى من البلاد، كما هو معروف فى تاريخ أوربا الوسيط إلى أن جاءت الثورة الفرنسية، فانتصرت للعلم والعلماء، وأقصت الكنيسة عن مكانتها باعتبارها رمزًا للجهل والتخلُّف فى هذا العصر، وبدأت فرنسا تتبنى فكرة الدولة العلمانية، بمعنى إقصاء كل ما هو دينى عن السياسة ورفضه كل ما هو مقدس أن يكون له أثر فى سياسة الدولة اجتماعيًّا وثقافيًّا واقتصاديًّا وسياسيًّا[1].

وانتقلت قصة الصراع إلى عالمنا الإسلامى، وظهرت هذه الثنائيات على ألسنة نصارى الشام ومصر وفى مؤلفاتهم، **مثل**: شبل شميل، وسلامة موسى، وإسماعيل مظهر، وغيرهم، وساعد على انتشار هذه الثنائيات الحالة الانهزامية التى يعيشها العالم الإسلامى ومحاولة البعض تقليد الحضارات المنهزمة للحضارات المنتصرة الغالبة، وظهر فى المجتمع من ينادى بالتقليد الأعمى للحضارة الأوروبية وأن تكون هى النموذج والمثال، وفى مقدمة ذلك التقليد العلمانى فى سياسة الدولة القائمة على رفض كل ما هو دينى أو مقدس، وأن التشريع والقانون لا علاقة له

(١) **انظر تفصيلات ذلك فى**: الفكر الإسلامى فى مواجهة التغريب واستلاب الهوية، الفصل الخاص بالعلمانية، مقدمة كتاب قضية الألوهية بين الدين والفلسفة- محمد السيد الجليند، ص٢٧-٣٠ .

بكل ما هو دينى أو مقدس، وفى غصون ذلك ظهرت مقولة أن الدين يناقض العلم، وأن القرآن يقيد العقل عن التفكير الحر، ولا بد من الأخذ بمنطق العلم حتى ننهض به كما نهضت أوربا حين تخلصت من سلطة الكنيسة. وصوروا القضية على أنها صراع بين الإسلام والعلم، كما كان الشأن فى أوربا فى العصور الوسطى. وتجاهل هؤلاء تمامًا أن الإسلام ليس هو الكنيسة، وأن طلب العلم فى الإسلام عبادة لله، وممارسة العلم والبحث العلمى مطلب شرعى يحاسب المجتمع على إهماله أو التقصير فيه. وأصبح الصراع فى بلادنا مثالًا لما كان موجودًا فى أوربا.

وتبنى المستشرقون هذه الدعوى المكذوبة على الإسلام، وكتبوا المقالات وألفوا الكتب ترويجًا لهذه الدعوى الكاذبة، ثم تطورت القضية على أيديهم إلى ادعاء بأن سبب تخلُّف المسلمين حضاريًّا وثقافيًّا هو تمسُّكهم بالإسلام، وأن القرآن الكريم سبب أساسى فى ذلك[1].

وظهر من ينادى بأن القرآن متناقض، وهذا دليل على أن القرآن ليس من عند الله. وظهر من قال إنه ليس هناك رب خالق، وإنما هى البيولوجيا تعمل بقوانينها الطبعية[2].

هذا بالإضافة إلى ما هو متوارث فى أقسام علم الاجتماع فى جامعاتنا المصرية؛ بل والإسلامية كلها من تفسيرات علماء الاجتماع للدين بأنه ظاهرة اجتماعية وليس وحيًا إلهيًا. وتفسيرات علماء النفس بأن الوحى حالة نفسية يعيشها مدعى النبوة ويعبر عنها بأنه يوحى إليه، وكل هذه التفسيرات نقلها هؤلاء عن المدرسة الفرنسية

(١) **انظر مقدمة:** قضية الألوهية بين الدين والفلسفة ص٢٠-٢٢ – د/ محمد السيد الجليند .

(٢) ظهر من قال ذلك صراحة على شاشة التلفاز فى مواجهة وكيل وزارة الأوقاف سالم عبد الجليل فى شهر رمضان سنة ١٤٣٥ وسمعته ورأيته بنفسى، كما استضاف برنامج صبايا الخير طيبة قامت بتأليف كتاب تنكر فيه وجود الخالق وأن البيولوجيا هى التى تعمل عملها وليس هناك رب خالق، وقامت المذيعة بطردها من البرنامج .

لعلم الاجتماع بريادة أوجست كونت، دوركايم، ليفى بريل، وغيرهم، ونقلوها إلى جامعاتنا فى مؤلفاتهم التى تدرس لأبنائنا على أنها حقائق علمية، وليست آراء اجتهادية أفرزتها بيئة ثقافية غير بيئتنا، وكانت تعبيرًا عن موقف العلماء من الكنيسة فى أوربا.

(٤)

ولو نظرنا فى واقع الأمة الإسلامية وقارنا موقف علماء الكلام المعاصرين بموقف الأئمة الكبار من المعتزلة والأشاعرة على سواء سوف نجد الخلاف كبيرًا بين الموقفين فى النهوض بوظيفة علم الكلام وأداء مهمته من جانب، وسوف نجد اجتهاد الأئمة الكبار تحوّل على يد المعاصرين إلى تقليد للرأى وتعصُّب للمذهب وتطرُّف فى الأحكام وجمود العلم على القضايا التى أثارها القدماء، وتخلُّف عن مواكبة العصر وهروب من مشكلاتنا المعاصرة إلى إثارة القضايا الخلافية التاريخية التى كلما انطفأ نارها أثاروها من جديد بدون مبرر، وأصبح التعصُّب سمة غالبة على المشتغلين به، كلٌّ يوالى ويعادى على آراء شيخه وموقف المذهب الذى ينتمى إليه، فالأشعرى يوالى الأشاعرة ويتعصب لهم، والسلفى يرفض الأشاعرة ويتهمهم، والصوفى يرفض الجميع ويتعصب لمنهجه، وأخذت دائرة الخلاف المذهبى تتسع شيئًا فشيئًا على يد المتأخرين، وتدخلت السياسة فى هذا الشأن لتشجيع بعض المذاهب وتنتصر لها وتبذل من الأموال ومن وسائل الترغيب والترهيب فى سبيل ذلك ما لا يخفى على أولى الألباب من جيلنا المعاصر، وتبع ذلك أن تفرقت صفوف الأمة الإسلامية، وتشتت شملها وأصبحت هدفًا مقصودًا لكل طالب.

وانتهز الاستعمار الأوربى هذه الحالة من التمزُّق والتشتُّت فتدخل بجهازه الإعلامى لتزداد نار الفرقة اشتعالًا، ويزداد تمزُّق الأمة، فأشعل نار الفتنة الطائفية

فى البلاد كلها، واستعمل فى ذلك كل الوسائل المتاحة؛ ليشعل نار الفتنة بين الفرق والطوائف المختلفة؛ حتى ضاعت هيبة الأمة، وكسرت شوكتها بأيدى أبنائها، واستعان بعضهم على بعض بالدول الاستعمارية، فاستباحوا دماء المسلمين وأعراضهم وأموالهم، وهم بذلك يحسبون أنهم يحسنون صنعًا.

إن حالة التمزُّق السياسى والتشتُّت فى الآراء والمذاهب العقائدية قد أسهم فيه إلى حد كبير موقف المتكلمين المذهبى، وتعصُّب كل ذى رأى لرأيه ورفضه الآخر وادعاء العصمة لمذهبه، وأنه يملك الحقيقة المطلقة وما سواه خروج عن الصراط المستقيم تجب مدافعته وحماية الشباب منه.

وإذا كانت المعارضة السياسية تقابل بالنفى أو الاعتقال السياسى أو القضاء المسيس أحيانًا، فإن المعارضة الدينية تقابل بالأسوأ والأخطر، وهو سلاح التكفير والخروج من الملة. ولا يخفى على أحد من المشتغلين بهموم الأمة ما يجرى فى الساحة الدولية من التترس بسلاح التكفير فى أقطار العالم الإسلامى والانتصار بالسياسة للرأى والمذهب.

إن خريطة العالم الإسلامى قد حددتها المذاهب الدينية أكثر مما رسمته الحدود الجغرافية. فأنت تستطيع الآن أن تلقى نظرة على العالم الإسلامى جغرافيًا وتستطيع بسهولة أن تصنف كل قطر مذهبيًا وعقائديًا، فهذا قطر أشعرى العقيدة، وذلك سلفى العقيدة، وثالث ماتريدى أو معتزلى. وهذا شيعى، وذاك سنّى.

وللأسف الشديد فإن تدخل السياسة فى ذلك قد ساعد على نقل هذا الخلاف المذهبى إلى أوربا وأمريكا مع الشباب المهاجر من بلاد المسلمين بحثًا عن لقمة عيش كريمة أو هربًا من سطوة حكم ظالم، وانتقلت هذه الخلافات إلى خارج بلاد المسلمين وساعد على تنميتها أصحاب الولاءات السياسية، وبدا الإسلام هناك كأنه ليس إسلامًا واحدًا؛ بل إسلامات متعددة، وتبع ذلك أن تعددت المساجد المذهبية هناك، وظهر بين المهاجرين نوع من الرفض المذهبى للمخالف، فلا يصلى بعضهم

فى المساجد المخالفة له مذهبيًا ولا وراء الإمام المخالف له مذهبيًا، واتسعت دائرة الفرقة وحالة التمزُّق؛ حتى إن بعضهم كان يستعدى الساسة على البعض الآخر، ولمصلحة العدو المشترك للمسلمين.

لا أشك أن التعصُّب المذهبى قد أسهم إلى حد كبير فى حالة التمزُّق التى يعيشها العالم الإسلامى الآن. فما زلنا إلى الآن نسمع فى الإسلام من يتهم مخالفه فى الرأى والمذهب بأبشع ما يتهم به المسلم وهو الخروج عن الملة، ولازالت بعض الأقطار الإسلامية تحتضن مذهبًا معينًا، وتتهم ما عداه، ولا زال هذا المرض يتفشى بين شباب الأمة من أتباع الفرق المختلفة.

(٥)

من المعروف أن قضايا علم الكلام (الإلهيات – النبوات – السمعيات) كلها قضايا غيبية لا تنتمى إلى عالم الشهادة. وبالتالى ليس للحواس سبيل إلى إدراكها، وليس للعقل مدخل إلى اليقين بمسائلها إلا عن طريق الوحى المعصوم، وحديث الكتاب والسنة عن هذه القضايا الغيبية جاء على نحو مجمل غير تفصيلى، ولم يطلب القرآن الكريم ولا السنة النبوية الصحيحة أن نبحث فى مسائله بحثًا تفصيليًّا، وليس هناك نص صحيح من كتاب أو سنة يأمر بذلك على سبيل الوجوب أو الندب؛ بل إن روح النصوص الصحيحة وظواهر الشرع تحذر من البحث فى هذه المسائل للعلم بأن العقل لا سبيل له إلى إدراك مسائل عالم الغيب، فالعلم التفصيلى بذات الله وصفاته لم يرد نص يأمر بالبحث التفصيلى فيه، وإنما ورد الأمر بالإيمان به دون البحث التفصيلى فيه، فلا يناله وهم ولا يدركه عقل. قال تعالى: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾ [1]. وفى الأثر: «تفكروا فى آلاء الله ولا تفكروا فى ذاته»[2]، وقال ابن

(١) سورة الشورى: ١١ .

(٢) المعجم الأوسط: ٦/ ٢٥٠ .

عباس: ليس فى الدنيا مما فى الجنة إلا الأسماء فقط، ولذلك فإن مطلب القرآن الكريم هو الإيمان بما ورد فيه من عالم الغيب، وليس البحث فيه؛ لأنها من محارات العقول، ولذلك كثر فيها اختلاف أنظار المتكلمين، واضطربت فيها آراؤهم، فكان أحدهم ينفى ما يثبته الآخر، وما يدعيه أحدهم يقينيًا وضروريًا ينفيه الآخر؛ لأنه متشابه، ونجد حذاق المتكلمين ينتهون فى آخر أمرهم إما إلى التوقُّف فى المسائل المعينة كما حكى ذلك عن الآمدى وهو من كبار الأشاعرة، وإما إلى الحيرة أو القول بتكافؤ الأدلة، **وكان يقول**: ... لا سبيل إلى القطع فى شيء مما قيل من سائر المذاهب، **أو يقول**: هذا ما عندى، ولعل عند غيرى غيره[1]. وهذا كان موقفه فى مسألة الكلام ووحدته التى قال بها الأشعرى[2]، وكذلك موقفه أيضًا من حدوث العالم[3].

وهذا كان موقف الشهرستانى الذى عبَّر عنه فى مقدمة كتابه «نهاية الإقدام فى علم الكلام» حين قال معبرًا عن حاله:

لعمـــرى لقـــد طفـــت المعاهـــد كلهـــا

وســـيرت طـــرفى بـــين تلـــك المعـــالم

فلـــــم أر إلا واضـــــعًا كـــــف حـــــائر

عـــلى ذقـــن أوتـــار عـــاش نـــاوم

وكان هذا هو موقف الإمام الرازى وهو من أكثر الأشاعرة إيغالًا فى العقليات بعد أن أفنى عمره بحثًا فى هذه المسائل الدقيقة تفنيدًا لآراء الخصوم وانتصارًا لمذهبه

(١) تقريب درء تعارض العقل والنقل ص١١٩-١٢١، وأبكار الأفكار للآمدى (٢/ ٢١١أ)، (١/ ٩٨أ) مخطوط رقم ١٦٠٣ دار الكتب المصرية.

(٢) نفس المصدر والأبكار (١/ ١٠أ).

(٣) نفس المصدر والأبكار (١/ ١٠أ).

الأشعرى أعلن عن حيرته وكثرة الاضطراب فى هذه المسائل، **فقال**: ومن ذا الذى وصل إلى هذا الباب أو ذاق من هذا الشراب. **ثم أنشد**:

نهايـــــة إقـــــدام العقـــــول عقـــــال

وأكثـــر ســـعى العـــالمين ضـــلال

وأرواحنـــا فى وحـــشة مـــن جـــسومنا

وحاصـــــل دنيانـــــا أذى ووبـــــال

ولم نـــستفد مـــن بحثنـــا طـــول عمرنـــا

ســـوى إن جمعنـــا فيـــه قيـــل وقـــالوا

لقد تأملت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية فما رأيتها تشفى عليلًا، ولا تروى غليلًا، ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن الكريم، اقرأ فى النفى ﴿ **لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ** ﴾ (١)، ﴿ **وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا** ﴾ (٢) ، ﴿ **هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا** ﴾(٣)، ومن جرَّب مثل تجربتى عرف مثل معرفتى.

وكذلك كان موقف ابن أبى الحديد وهو من معتزلة الشيعة **كان يقول**:

فيـــك يـــا أغلوطـــة الفكـــر حـــار أمـــرى وانقـــضى عمـــرى

ســـافرت فيـــك العقـــول فـــما ربحـــــت إلا أذى الـــــسفر

والإمام الغزالى انصرف فى آخر عمره عن علم الكلام إلى طريقة أهل الكشف ومات وهو مشتغل بعلوم الحديث، وغير هؤلاء كثيرون ممن اشتهر أمرهم بعد طول النظر انتهوا إلى الحيرة والاضطراب فى هذه المسائل؛ حتى حكى عن ابن

(١) سورة الشورى: ١١ .
(٢) طه: ١١٠ .
(٣) مريم: ٦٥ .

واصل الحموى – وهو من أفضل أهل زمانه – أنه كان ينام على فراشه، **ويقول**: اضطجع على فراشى، وأضع المحلفة على وجهى، وأقابل بين أدلة هؤلاء وأدلة هؤلاء؛ حتى يطلع الفجر، ولم يترجح عندى شيء[1].

إذا كان هذا هو موقف أئمة المذاهب فى مسائل علم الكلام وقضاياه الكبرى؛ الحيرة والاضطراب والتوقُّف والقول بتكافُؤ الأدلة، فما هى الدوافع العلمية والمنهجية للتعصُّب لمذهب بعينه، وادعاء أنه وحده الحق المعصوم، وما سواه باطل مرفوض.. ؟ أليس من الأفضل علميًا ومنهجيًا أن يقبل الجميع على هذا العلم بروح متجردة عن العصبية لمذهب بعينه أو لشخص بعينه، وتطلب الحق لذات الحق بعيدًا عن النظر إلى من قاله أو من رآه، ويكفينا شرفًا فى ذلك أنه الحق .. حتى لو جاءنا عن من يخالف الرأى والمذهب، فلا تكون ممن يعرف الحق بالرجال، وإنما تعرف الحق، ثم تعرف له أهله.

* * *

(١) تقريب درء تعارض العقل والنقل ص١١٩-١٢١ .

المطلب الرابع
عقيدة بلا مذاهب

لم يعد للأمة من سبيل أو علاج لحالة التشتُّت فى الآراء والتمزُّق السياسى الذى تعيشه الأمة الإسلامية فى وقتها الراهن إلا بالعودة فى أمور العقيدة إلى سابق عهدها وعصور ازدهارها، والعودة إلى العقيدة الخالية من التمذهب إلى العقيدة الصحيحة فى نقائها وصفائها مما علق بها من غبش التمذهُّب وتلوُّن الولاءات العصبية وما أفرزته هذه الحالات من تطرُّف فى الأحكام، وخروج عن المقاصد الدينية وتقديم الولاء المذهبى على المقصد الشرعى.

إن العودة إلى «**عقيدة بلا مذاهب**» هو **طوق النجاة للأمة وللشباب** الذى كاد أن يفقد الثقة فى أولى الرأى الدينى لكثرة ما يسمع منهم من فتاوى يكفرون بها بعضهم البعض، وكلهم يدعى امتلاك الحقيقة ويرفض الآخر.

وهذا الذى ندعو إليه ليس جديدًا على مسار الفكر الإسلامى الصحيح، إنه دعوة المصلحين فى كل عصر غلبت على أبنائه أعراض هذا المرض الذى من شأنه أن يزلزل أركان الدول ويحطم كيانها .. نعم ليس هناك من مرض أخطر على كيان الأمة من مرض التمزُّق والفرقة الذى تعيشه الأمة ويمارسه المشتغلون بالعلوم الشرعية الآن. إنه المرض الذى يقتل فى جسد الأمة مخزون المناعة ورصيد المقاومة؛ ليقدمها لقمة سائغة فى فم أعدائها، لا بد من «عقيدة بلا مذاهب» تستمد أصولها وفروعها من مصادرها السمحة البعيدة عن هذا المنهج الجدلى الجاف الذى لا يبنى عقيدة ولا يرد شبهة، بل يبذر عوامل الخصومة ويؤسس للتعصُّب والتطرُّف فى الأحكام.

إن المسلم لن يسأله ربُه يوم القيامة عن ولائه المذهبى. هل كان أشعريًّا فيرضى

عنه ربه، أو سلفيًّا حنبليًّا، أو تيميًّا فيدخل الجنة، أو صوفيًّا، أو معتزليًّا، وليست هذه الولاءات مما يعادى عليها المسلم شرعًا ولا عقلًا، وإنما سوف يسأل عن ولائه لله ورسوله ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ۝٥٥﴾[1]، ﴿إِنَّ وَلِيِّۦَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ۝١٩٦﴾[2]، ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٣١﴾[3].

ويجب أن يكون ولاء المسلم مستمدًا من هذا المصدر ومؤسسًا عليه، وليس لمذهب أو رأى آخر إلا بقدر قربه أو بعده من هدى الكتاب والسنة.

أولًا: إن المخرج للأمة من حالة التشتت المذهبى هو «عقيدة بلا مذاهب» مؤسسة فى أصولها وفروعها على ما ورد به النص الصحيح خالية من الأسئلة الافتراضية التى توارثتها الأجيال فى علم الكلام المذهبى؛ لأن هذه الأسئلة لن تزيد المؤمن إيمانًا، ولا تزيد الاعتقاد يقينًا، والأولى من ذلك أن نطرح الأسئلة العملية التى تقتضيها العقيدة الصحيحة، وأعنى بها الأسئلة المتعلقة بالسلوك الإنسانى فى المجتمع وفى الأسرة وأثر العقيدة الصحيحة فى بناء المجتمع المسلم الذى يجسد الاعتصام بحبل الله والولاء لله وليس لشخص أو لمذهب، إننا لم نقرأ فى تاريخ الجدل المذهبى بين الفرق أن شخصًا خرج من دائرة الكفر إلى دائرة الإيمان، ولا من دائرة الشك إلى برد اليقين بناء على مناظرة جدلية بين المتكلمين، أو حوار مذهبى بين متخاصمين، فما هو الداعى الآن فى الاستمرار فى إحياء هذا المنهج الجدلى بين الفرق بعد أن أعلن أئمته الكبار موقفهم من هذا المنهج، وقد سبق أن أشرنا بإيجاز إلى موقف كل من الغزالى فى «فيصل التفرقة»، والشهرستانى فى «نهاية الإقدام» ، والآمدى فى « أبكار الأفكار» .. وكلهم أئمة فى المذهب.

(١) المائدة: ٥ .
(٢) الأعراف: ١٩٦ .
(٣) آل عمران: ٣١ .

إن المنهج القرآنى فى تأسيس اليقين بالعقيدة أصولها وفروعها أقرب إلى الفطرة السليمة، وقائم على البرهان وليس الجدل، ويحمل فى مفرداته روح الشريعة القائمة على التسامح والترغيب والود وتأليف القلوب، فضلًا عن أنه يجمع بين نور العقل ونور الشرع معًا بعيدًا عن العصبية المذهبية.

ثانيًا: اعتبار المنهج القرآنى هو الأصل فى عرض قضايا العقيدة ومسائلها، وتقديم أدلة القرآن على هذه المسائل بدلًا من أن نقدم أدلة علم الكلام والفلسفة أولًا ثم نتأول عليها آيات القرآن، والمنهج القرآنى يقدم لنا قضايا العقيدة بشكل مجمل غير مفصل، والإجمال هنا أمر مطلوب لذاته؛ لأن المطلوب هنا هو الإيمان واليقين بوجود القضية الإيمانية حقيقة كالإيمان بوجود الله (وحدانيته، صفاته، الوحى)، السمعيات (الملائكة، الصراط، الميزان، الكوثر، الجنة، النار، البعث... الخ). المطلوب هو إثبات وجود هذه الغيبيات على سبيل الإجمال وليس فى القرآن تفصيلات لكيفية هذه القضايا الإيمانية إلا ما صح حول بعضها من الأحاديث النبوية .. وسكوت القرآن عن الحديث التفصيلى عن هذه الغيبيات يرشدنا إلى الكف عن السؤال حولها. ما هى – كيف هى ؟ ... الخ. لأن مدارك العقول لا تنالها بسبب ما إلا على سبيل التصوُّر العقلى لما يشبهها فى عالم الشهادة. كما روى عن ابن عباس: ليس فى الدنيا مما فى الجنة إلا الأسماء فقط. وفى الحديث القدسى: «**أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر**» [1]. وكل تصورات العقل حول هذه الأمور الغيبية لا يفيد اليقين؛ حتى لو ادعى صاحبه أنه وحده الصواب وما سواه خطأ، ولا عصمة لأحد فى ذلك، ولا عاصم فى ذلك إلا التمسُّك بالنصوص القطعية الواردة فى المسألة المعينة، فما جاء منها مجملًا نؤمن به على مراد الله منه. فكان هذا المنهج هو الجامع لكلمة الأئمة الكبار

(١) سنن ابن ماجه، أبواب الزهد، باب صفة الجنة، حديث رقم: ٤٣٢٨ .

وعنوان وحدتهم ولمَّ شملهم، كلمتهم كلهم واحدة على ذلك الأصل دون دخول فى التفصيلات والتفريعات التى وجدناها فى علم الكلام، التى فرقت كلمة علماء الأمة، وبددت جهودها.

والقرآن الكريم حين يُقدم القضايا الإيمانية يقدم بين يديها دلائل وبراهين صدقها (وجود الله، وحدانيته، صفاته، البعث)، ودلائل القرآن على هذه المسائل جانبان:

١- **الأول منها**: النص القرآنى فى ذاته هو دليل نقلى يخاطب به المؤمن الذى آمن بصدق الرسول فيما بلغ عن ربه وآمن بأن القرآن كلام الله، فيخاطب بمجرد النص القرآنى، ولا شك أن الآيات القرآنية – خاصة المكى منها – كثيرة فى هذا الباب منها ما هو دليل على وجود الله، ومنها ما هو دليل على وحدانية الخالق، ومنها ما هو دليل على البعث والحساب.

٢- **أما الجانب الثانى**: فهو البرهان العقلى المتضمن فى الآية الكريمة، وكل آيات القرآن الكريم التى تتحدث عن مسائل العقيدة قدمت لها هذه الأدلة التى تشتمل على هذين الجانبين: الجانب النصى الشرعى والجانب البرهانى العقلى الكامن فى النص. وليس المقام هنا يسمح بالشرح والتفصيل[1]. وهو دليل شرعى عقلى برهانى معًا.

والمنهج القرآنى فى الاستدلال على قضايا العقيدة لا يقتصر فى خطابه على ملكة معرفية واحدة؛ بل يخاطب كل ملكات الإنسان المعرفية التى وهبها الله للإنسان الظاهر منها والباطن، ما عرفناه منها وما لم نعرفه، عكس أدلة الفلاسفة والمتكلمين التى تختزل الكينونة الإنسانية فى المعرفة الحسية فقط، أو المعرفة العقلية

(١) **انظر**: تأملات حول منهج القرآن فى تأسيس اليقين، ص٧، ط ١، ١٩٩٠م.

فقط. أما القرآن الكريم فيتوجه بخطابه إلى كل ملكات الإنسان المعرفية لتتكامل فيما بينها فى تأسيس اليقين الجازم فى الاعتقاد الذى لا يناله شك ولا ترقى إليه الشبهات، ومن المعروف أن مدارك العقول متفاوتة، فمن الناس من يقنعه الخطاب الوجدانى، ومنهم من لا يقنعه إلا مخاطبة العقل بالبرهان، ولهذا تنوعت أساليب الخطاب القرآنى فى الإقناع، فيخاطب البعض بما يحرك النفوس والقلوب نحو طلب اليقين بالله الخالق. قال تعالى: ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾ (١).

كما يخاطب البعض الآخر بلغة البرهان ونصب الدليل. قال تعالى: ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ (٢)، ﴿ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١١﴾ ﴾ (٣).

المعرفة بين عالم الغيب والشهادة:

وهنا أمران أرى ضرورة الإشارة إليهما فى البناء المعرفى كما يصوره القرآن الكريم:

الأول: أن هناك ثنائية معرفية تتمثل فى موضوع المعرفة. فهناك عالم الشهادة، وهناك عالم الغيب. تقابلها ثنائية فى أدوات المعرفة ووسائلها. فهناك الحواس الخمسة (الحواس الظاهرة) فى مقابلة عالم الشهادة، وهناك الحواس الباطنة فى مقابلة

(١) النمل: ٦٢- ٦٣ .
(٢) الطور: ٣٥-٣٦ .
(٣) لقمان: ١١ .

عالم الغيب، وقد تأسس الموقف المعرفى فى القرآن الكريم على العلاقة الضرورية بين عالم الغيب وعالم الشهادة، والعلاقة الضرورية بين الحواس الظاهرة والحواس الباطنة. فكل منهما يرتبط بالآخر، كارتباط المقدمات بالنتائج... والقرآن الكريم يضع عالم الشهادة أمام الحواس الظاهرة؛ لتتعرف عليه وعلى خصائصه وقوانينه والعلاقات المتبادلة بين ظواهره، وهذا مجال العقل الحسى الذى يتعرف بواسطة الحواس على هذا العالم. ثم ينتقل من هذا المستوى الحسى إلى عالم الغيب بواسطة الأسئلة التى لا مناص للعقل من التعامل معها بطرحها سؤالًا سؤالًا خلال التأمل والتفكر فى عالم الشهادة .. من خلق ... ؟ كيف خلق ...؟ لماذا خلق ...؟ من أين ... ؟ إلى أين ...؟ وهذه كلها أسئلة تنتقل بالعقل من عالم الشهادة إلى البحث عن ما وراء عالم الشهادة، وهو عالم الغيب (وجود الخالق – صفات الخالق .. المصير .. البدء؟).

وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه القضية فى كثير من الآيات، قال تعالى: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾﴾[1].

ومن دلالات هذا المنهج القرآنى أن نقرأ الكون ونحسن قراءته، كما نزل به

(١) النمل: ٦٠- ٦٤ .

أول الخطاب القرآنى ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ ﴾ [1]؛ ليكون الخلق دليلًا على الخالق تأكيد لقوله تعالى: ﴿ هَـٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ﴾ [2]، والأسئلة السابقة كلها تتعلق بما غاب عن الحواس، وتتخذ من عالم الشهادة دليلًا ومدخلًا لإثبات عالم الغيب.

الأمر الثانى: أن مطلوب القرآن فى المعرفة بعالم الشهادة يختلف عن مطلوب القرآن فى معرفة عالم الغيب. فالمطلوب فى عالم الشهادة هو المعرفة الكاملة بخصائصه وخصائص مفرداته وقوانينه وعلاقة الظواهر بعضها ببعض وهذا لا يتأتى إلا عن طريق البحث والعلم بكل جزئيات عالم الشهادة الذى يتناول الكون كله من سمائه إلى أرضه.. وذلك ليتحقق للإنسان أداء وظيفتى التسخير والتعمير الذين أمر بهما القرآن. تسخير العالم لصالح الإنسان، وتعمير الكون بالقوانين التى وضعها الله فيه. وهذا الجانب البحثى فى عالم الشهادة أمر قرآنى ومطلب شرعى لتحقيق وظيفة الكون التسخير والتعمير، قال تعالى: ﴿ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٢٠ ﴾ [3]، ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۝١٧ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ۝١٨ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ۝١٩ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ۝٢٠ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ۝٢١ ﴾ [4]، ﴿ قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْـَٔايَـٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ۝١٠١ ﴾ [5] والآيات فى ذلك كثيرة.

أما المعرفة المطلوبة بعالم الغيب فمختلفة عن ذلك تمامًا؛ لأن مطلوب القرآن فيها هو مجرد إثباتها والإيمان بوجودها كما أخبر النص الصحيح من الكتاب والسنة دون دخول فى تفصيلاتها. ما هى ؟ .. كيف هى ؟ .. والاقتصار فى ذلك على ما ورد

---

(١) العلق: ١ .
(٢) لقمان: ١١ .
(٣) العنكبوت: ٢٠ .
(٤) الغاشية: ١٧-٢١ .
(٥) يونس: ١٠١ .

به النص الصحيح.

ومن هنا لم يرد فى القرآن الكريم آية واحدة تأمر بالبحث فى عالم الغيب؛ بينما ورد الكثير من الآيات تأمر بالبحث فى عالم الشهادة. وهذا دليل على أن المطلوب فى عالم الغيب الإيمان بوجوده، كما أخبر بذلك القرآن، والكف عن السؤال عما سكت عنه القرآن الكريم .. وهذا يرشدنا إلى أن الأسئلة التفصيلية الواردة فى علم الكلام حول قضايا الغيب ومسائله أمر غير مرغوب فيه شرعًا إن لم يكن منهيًا عنه.

حديث القرآن عن الله:

القاعدة الأولى:

وإذا استقرأنا آيات القرآن الكريم فى حديثها عن الله سبحانه وتعالى سوف نجدها كلها تتحدث عن الله سبحانه وتعالى، فتثبت صفات الكمال له، وتنفى صفات النقص وتنزيهه سبحانه وتعالى عنها، قال تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤ ﴾ (١)، فهو سبحانه وتعالى ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ (٢) ، ﴿ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴾(٣)، ﴿ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (٤)، ﴿ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ (٥)، ﴿ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ ﴾ (٦)، ﴿ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ۝١٤ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ۝١٥ ﴾ (٧)، وأنه سبحانه وتعالى يجيء يوم القيامة والملك صفًّا صفًّا، وأنه ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ۝٢٢ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٢٣ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ

(١) الإخلاص: ١-٤ .
(٢) الشورى: ١١ .
(٣) المائدة: ١٠٩ .
(٤) البقرة: ٢٠ .
(٥) الأنعام: ١٠٢ .
(٦) غافر: ٣ .
(٧) البروج: ١٤-١٥ .

﴿ٱلْحَكِيمُ ۝٢٤﴾ [1]، وأنه ﴿عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [2]، ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ [3]، وأنه ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [4]، ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [5]، ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [6].

هذه الآيات وغيرها كثير الورود فى القرآن الكريم تصف الله سبحانه وتعالى بما وصف به نفسه من صفات الكمال وتنفى عنه ما ينزه عنه من صفات النقص، وكلها تدور بين إثبات صفات الكمال أو نفى صفات النقص عنه، ولا نجد فى القرآن الكريم ولا فى السنة الصحيحة نصًّا قطعى الثبوت وقطعى الدلالة تحدث عن كيفية معينة للذات الإلهية ولا يبين لنا ما هى على سبيل بيان الكنه والحقيقة. هذا ما لم يرد به نص صحيح لا فى الكتاب ولا فى السنة النبوية المطهرة؛ وإنما جاء حديث القرآن عن الله؛ ليثبت وجوده، ويثبت له ما وصفه به نفسه من صفات الكمال، وينفى عنه صفات النقص؛ لأن حقيقة الذات الإلهية وبيان ما هى على سبيل الكنه أمر فوق الإدراك البشرى، فلا يحويه لفظ، ولا تحتمله عبارة، وكل ما خطر بذهنك عن الله فإن الله بخلافه؛ لأنه سبحانه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [7] فى عالم الشهادة فيقاس عليه.

من هنا نستطيع القول مطمئنين إلى أن حديث القرآن عن الله كان مقصده إثبات الوجود وليس إثبات الكيف أو بيان الماهية.

---

(١) الحشر: ٢٢-٢٤.
(٢) طه: ٥.
(٣) الزمر: ٦٧.
(٤) البقرة: ٢٥٥.
(٥) الأعراف: ١٨٠.
(٦) الروم: ٢٧.
(٧) الشورى: ١١.

القاعدة الثانية:

أن ما يقال عن الذات الإلهية يقال عن الصفات أيضًا. فنحن نقرأ آيات القرآن الكريم وما صح من السنة النبوية فنجد أن القرآن يثبت مجرد الصفة دون بيان لكيفيتها، ولا بيان لحقيقتها، ولك أن تراجع الآيات الكريمة التى تضمنت صفات الحق سبحانه سواء ما كان منها من صفات المعانى أو الصفات الخبرية أو صفات الأفعال، نجدها كلها على نحو واحد تثبت الصفة ولا تبين كيف هى ولا ما هى حقيقتها أو ماهيتها؛ وذلك لأن كل صفة تتبع موصوفها. فما يقال عن الذات يقال عن الصفات، فالقانون واحد والقاعدة واحدة شاملة لهما معًا. هى إثبات الوجود ونفى الكيف، ولذلك كان مطلوب القرآن الكريم هو الإيمان واليقين بوجود الله وإثبات صفاته دون البحث عن كيفية الذات أو كيفية الصفات، **وهذه القاعدة المهمة جسدها الإمام مالك** ﷺ حين سئل عن الاستواء ما هو؟ **فقال:** الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به وجوب، والسؤال عنه بدعة.

وشرح ذلك بالتفصيل الإمام ابن بطة العكبرى فى كتابه الإبانة حين **قال:** فلا يقال له كيف؟ لأن كيف يسأل بها عمن لم يكن، ثم كان. فيقال: كيف كان؟ أما الذى لم يزل ولا يزول ولا يحول فلا يقال له كيف هو، ولا كيف صفاته؛ لأنه لا يعلم ذلك إلا هو.

وتطبيقًا لهذه القاعدة المهمة نجد أن هناك أسئلة كثيرة ليست مطلوبة ولا واردة فى هذا المقام لكن طرحها علماء الكلام فى موقفهم من قضية الصفات الإلهية وعلاقتها بالذات؛ لأنها أسئلة وافدة على العقل من قياس عالم الغيب على عالم الشهادة، وهذا منزلق خطير وقع فيه علماء الكلام؛ خاصة الذين آثروا تأويل النصوص لتوافق ما معهم من معقولات جعلوها أصلًا، وتأولوا الصفة عليها، وسواء فى ذلك المعتزلة أم الأشاعرة. ولو أنهم تنبهوا لهذه القاعدة الذهبية (إن ما يقال عن الذات يقال عن الصفات) لأراحوا واستراحوا. وكان عليهم أن يفطنوا

إلى أن أى تأويل للصفة على نحو من الأنحاء هو بحث عن الكيفية وبحث فى الكيفية، والكيفية هنا مجهولة كما قال الإمام مالك... ويقينى أنه لن يرتفع الخلاف بين علماء الكلام من أبناء الفرق المختلفة إلا إذا طبقوا هذه القاعدة القرآنية، فيؤمن بالله ربًا خالقًا وإلهًا معبودًا موصوفًا بكل كمال وصف نفسه به فى كتابه أو على لسان رسوله، ولا نتساءل عن كيف هو ولا عن كيفية الصفة، ولأننا لم نكلف نحن بمعرفة ذلك ولا بالبحث عنه أو البحث فيه؛ لأنه فوق مستوى إدراك العقل، ولا يكلف الله نفسًا إلا وسعها، وكلما تكلف المتكلمون البحث فى هذه الدقائق ازدادوا حيرة واضطرابًا، واتسعت دائرة الخلاف بينهم، وأدى ذلك إلى التعصُّب والتطرُّف فى الأحكام ، ورفض كل فريق للآخر، وتبادل الاتهامات بينها.

القاعدة الثالثة:

إن معنى صفات الكمال وصفات النقص يجب أن يتلقى من السمع؛ حتى لا نترك الباب مفتوحًا للعقل البشرى، فيصف الله سبحانه بما يظنه كمالًا وهو ليس كذلك أو ينزه الله تعالى عما يظنه نقصًا وهو ليس كذلك، وتطبيقًا لهذه القاعدة حرص جمهور الأمة على القول بأن أسماء الله وصفاته توقيفية، وليست اجتهادية، فلا يجوز أن نسمى الله سبحانه بما لم يسم به نفسه، ولا أن نصفه بما لم يصف به نفسه فى كتابه أو على لسان رسوله ﷺ.

القاعدة الرابعة:

الجمع بين الإثبات والتنزيه، إثبات الصفة كما وردت وتنزيه الله عن المماثلة فيها مع غيره كما جمع القرآن بينهما فى قوله سبحانه: ﴿ **لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ** ﴾ [1] فأثبت له سبحانه السمع والبصر ونفى مماثلته لغيره فيهما. وهذا منهج

(١) الشورى: ١١ .

سديد فى قضية الصفات نبَّه إليه القرآن الكريم فى قوله سبحانه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ ، فأشار سبحانه فى أول الآية إلى تنزيه سبحانه عن مماثلة المخلوقين فى أى صفة من صفاته، وأثبت لنفسه سبحانه صفتى السمع والبصر. وهذه قاعدة قرآنية ينبغى أن تكون حاكمة لموقف جميع الفرق الكلامية فى قضية الصفات الإلهية كلها (إثبات بلا تمثيل، وتنزيه بلا تعطيل).

وبعد أن تكلمنا بإيجاز عن هذه القواعد التى نبَّه إليها القرآن الكريم وأشارت إليها النصوص نود أن نضع أمام عالم الكلام المعاصر بعض القضايا التى أراها مهمة فى أداء وظيفة علم الكلام المعاصر؛ لكى نصل من خلال هذه القراءة إلى تثبيت قضيتنا الأساسية وهى «عقيدة بلا مذاهب» كمدخل علمى منهجى إلى وحدة الأمة وخروجها من هذا النفق المظلم الذى دخلت فيه أو بعبارة أخرى أُريد لها أن تدخل فيه.

* * *

المطلب الخامس
معالم القراءة الجديدة

أولًا: المنهج القرآنى:

(أ) من المتفق عليه فى علم المناهج أنه كلما كان الدليل أقرب إلى الفطرة كان أوضح للعقل وأكثر دلالة على المطلوب، وكانت جهة التلازم بين الدليل والمدلول، وبين المقدمات ونتائجها ضرورية واضحة لا ينفك أحدهما عن الآخر، وكان تصوُّر العقل لأحدهما يلزم عنه ضرورة تصور الآخر. وبدون هذا التلازم لا يصح أن يكون الدليل برهانيًّا ولا كاشفًا عن المدلول، كما لا يلزم عنه ضرورة وجود المدلول. وهذا ما نجده فى المنهج الجدلى الذى كشف عنه الحوار القائم والمستمر بين الفرق الكلامية، وقد سبق أن وجه الإمام الأشعرى نقده الشديد إلى هذا المنهج الجدلى متمثلًا فى رفضه دليل الجوهر والعرض، وصرَّح فى رسالته إلى أهل الثغر أن هذا الدليل ليس يقينيًّا فضلًا عن أنه معتاص على الفهم لطول مقدماته. وتبعه فى هذا النقد ابن رشد فى كتابه «مناهج الأدلة» وابن تيمية فى «درء تعارض العقل والنقل»، وبينوا أن جهة التلازم بين مقدماته ونتائجه ليست يقينية بنفسها.

(ب) أما فى المنهج القرآنى فى الاستدلال على قضايا الألوهية، فإن جهة التلازم بين الدليل والمدلول ضرورية واضحة ولا انفكاك بينهما. ولا يحتاج الأمر فى ذلك إلا أن يتصور العقل أحد طرفى القضية فيلزم عنه ضرورة تصوُّر الطرف الآخر. ويقدم لنا القرآن الكريم دليل الخلق أو دليل الآيات باعتبار ذلك أوضح الأدلة العقلية على وجود الله الخالق؛ فضلًا عن قربه إلى الفطرة السليمة.

قال تعالى: ﴿ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ﴾ [1]، ﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ

(١) لقمان: ١١ .

﴿ شَيْءٍ ﴾ [1]، ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝ ﴾ [2] . ولو استقرأنا المادة اللغوية (خلق) ومشتقاتها فى القرآن الكريم خاصة القرآن المكى سوف نجدها فى معظم مواردها تقود العقل إلى أن كل مخلوق لابد له من خالق دون جدل أو عناد، ولم يوجد من ادعى الخلق أو نسب الخلق إلى نفسه، ولا ينازع فى هذه القضية التقريرية[3].

وهذا جعل الدليل القرآنى أقرب إلى الفطرة السليمة فتقبله العقول دون منازعة فى ذلك لسهولة مأخذه وضرورة التلازم بين المقدمات والنتائج.

(ج) **ومن خواص المنهج القرآنى** أن أدلته جزئية ومعينة يلزم عنها ضرورة وجود مدلولها المعين مباشرة وبدون مقدمات، قال تعالى: ﴿ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ ﴾ فأشارت الآية الكريمة باسم الإشارة للقريب المشاهد للعين المبصرة لينتقل العقل منها مباشرة إلى أن لها خالق، وهذا أقرب فى دلالته على مطلوبه من الأدلة التى يستعملها الفلاسفة والمتكلمون؛ حيث يبدأون أدلتهم بالقضية الكلية سواء فى ذلك دليل الممكن والواجب عند الفلاسفة أو دليل الجوهر والعرض عند المتكلمين، ومن المعلوم أن القضايا الكلية تستمد صدقها من مفرداتها الجزئية وما لم تكن الجزئيات صادقة فى نفسها فلن تكون القضية الكلية صادقة.. وهذا ما جعل ابن رشد يرفض دليل الجوهر والعرض؛ لأنه رأى أن الاستقراء الذى قام به المتكلمون استقراء ناقصًا حين قالوا: إن العالم إما جوهر وإما عرض. فقال لهم: إن هذا التقسيم غير حاصر لمفردات العالم. فمن أين عرف أن السماء جوهر أو عرض، ومادامت إحدى المقدمات غير صادقة تكون النتيجة غير صادقة أيضًا.

إن دلالة الجزئى المتعين على مدلوله المعين دلالة قطعية وهى عين اليقين التى تحدث عنها القرآن الكريم حيث يكون تصوُّر العقل لعين الدليل يلزم عنه حضور

---

(١) الرعد: ١٦ .
(٢) العلق: ١ .
(٣) **انظر**: ابن تيمية وقضية التأويل ص٢٧٧-٢٨٤ .

المدلول فى الذهن؛ بخلاف الأدلة الناتجة عن القياس الكلى الذى يأخذ به الفلاسفة والمتكلمون فإن مدلوله يكون أمرًا كليًّا عامًّا ومشتركًا بين المدلول وغيره، وليس خاصًّا بالمدلول وحده. وهذا يؤدى إلى وقوع الاشتراك بين المدلول وغيره فلا تكون دلالته يقينية على المدلول المراد. وهذا عكس دلالة الأمر الجزئى على مدلوله، فإذا قلنا إن الشمس طالعة كان ذلك دليلًا يقينيًا على أن النهار موجود، كما أن حلول الليل دليل على غياب الشمس. وهذا كان الشأن فى أدلة القرآن على قضايا الألوهية، فإن الآية المذكورة فى القرآن (كونية كانت أو نفسية) علامة وبرهان جزئى على وجود خالقها، ولا يكون مدلولها حينئذ أمرًا كليًّا ولا مشتركًا بين المدلول وغيره. وقد ركز القرآن الكريم على آية الخلق بأنواعها المختلفة؛ لأن العلم بعين المخلوق المتعين يدل دلالة يقينية على وجود الخالق المعين، وجهة التلازم بين المخلوق وخالقه ضرورية وليست ظنية، وهذا بخلاف الأدلة الكلية، فإن جهة التلازم فيها ليست يقينية بنفسها ولا واضحة؛ فضلًا عن وقوع الشركة فيها بين المدلول وغيره[1].

د- مما ينبغى التنبُّه إليه فى قضايا الألوهية أن نعلم أن مفردات هذا العلم تنتمى إلى عالم الغيب،ومعنى ذلك أن معرفة هذه المفردات على سبيل الكنه أو الحقيقة أمر لا يقين للعقل فيه إلا إذا التزم بما جاء به النص الصحيح من الكتاب والسنة نصًّا لا تأويلًا؛ لأن أمور الغيب ليس لدينا فى عالم الشهادة منها إلا الأسماء فقط. وهذا يقتضى من المسلم أن يؤمن بما جاء به النص، ويسكت عما سكت عنه النص خاصة فى الإلهيات: الذات والصفات، وكفاه فى ذلك أن الرسول ﷺ لم يتكلم فى شيء من ذلك لا نفيًا ولا إثباتًا، ولم نقرأ فى ذلك شيئًا عن جيل الصحابة؛ بل كانوا جميعًا كلمتهم واحدة على التمسُّك بما جاء به النص والسكوت عما سكت عنه النص،

(١) **انظر تفصيلًا أكثر** فى: منهج السلف بين العقل والتقليد ص١١٢-١٢٢ .

وانصرفوا إلى العمل للعلم اليقينى الحاصل عندهم، إن أى سؤال عقلى حول هذه القضايا رمى فى عماية؛ لأنه سبحانه ليس كمثله شيء فيقاس عليه، وكل ما تصوره العقل فى ذلك فإن الله بخلافه. ومن هنا ندرك أن حديث القرآن عن الله كان مطلوبه إثبات وجوده وليس البحث عن كيفه، وإثبات وجوده سبحانه لا يحتاج إلى كبير عناء من العقل؛ لأن الفطرة السليمة دلت العربى الأمى فى العصر الجاهلى على أن البعرة تدل على البعير، وأثر السير يدل على المسير. وعلى هذا النهج الفطرى كان حديث القرآن عن الله من خلال التأمل فى أثاره وآياته الكونية لأنها أكثر دلالة على وجوده وعلى صفاته من حديث الفلاسفة والمتكلمين.

ثانيًا: قياس الأولى:

لفت القرآن الكريم نظرنا إلى قضية مهمة يجب الأخذ بها فى قضايا الألوهية. وهى الأخذ بقياس الأولى فى تأسيس اليقين لإثبات الحكم أو نفيه.

قال تعالى: ﴿ ۞ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ ﴾ (١).

وقال سبحانه: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ (٢).

وقال تعالى: ﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ ﴾ (٣).

وقال: ﴿ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ﴾ (٤).

وقال: ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ﴾ (٥).

---

(١) الإسراء: ٩٩.
(٢) الأحقاف: ٣٣.
(٣) غافر: ٥٧.
(٤) يس: ٨١.
(٥) يس: ٨١-٨٢.

وتكرر هذا المعنى فى القرآن كثيرًا.

وقياس الأولى قياس قرآنى عقلى مأخوذ من إشارات القرآن الكريم السابقة ومعناه: إثبات الحكم لشيء بناءً على ثبوت الحكم لنظيره أو لما الشيء أولى بالحكم منه.

فالآيات السابقة – وغيرها كثير فى القرآن الكريم – أشارت إلى أن أن الذى خلق السموات والأرض أول مرة ولم يعى بخلقهن قادر على أن يعيد خلقهن مرة ثانية فى النشأة الأخرى، وإن خلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس. ومن خلق الأكبر قادر على أن يخلق من دونه وهو الإنسان.

وهذا القياس قد أخذ به القرآن الكريم فى:

أ- إثبات التوحيد.

وذلك عن طريق ضرب الأمثلة من الواقع البشرى الذى يعيشه الإنسان، قال تعالى: ﴿ **ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ** ﴾ (١).

بمعنى هل يرضى أحدكم أن يكون عبده شريكًا له فى ملكه؟ والاستفهام المقرر فى الآية استفهام إنكارى، أى لا يرضى أحدكم بذلك. والعبد مخلوق وسيده مخلوق. فإذا كان المخلوق لا يرضى أن يشاركه مخلوق مثله فى ملكه، فكيف بالخالق سبحانه. ألا يكون ذلك مستحيلًا من باب أولى.

وقد تكرر ضرب الأمثلة على ذلك فى القرآن كثيرًا.

ب- إثبات صفات الكمال ونفى صفات النقص.

وذلك من خلال النظر والتأمل فى الصنعة الإلهية وآيات الله الكونية فإن

(١) الروم: ٢٨ .

دلالتها قاطعة على صفات الكمال للصانع، فكل ما كان كمالًا لا نقص فيه بوجه من الوجوه فى الصنعة كان الخالق أولى به، وكل ما كان نقضًا تنزه الصنعة عنه فالخالق أولى أن ينزه عنه. قال تعالى: ﴿ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ (١) وقال سبحانه: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ﴾ (٢). فله سبحانه المثل الأعلى من كل كمال لا نقص فيه، وله الأسماء الحسنى التى نص عليها فى كتابه الكريم، وأفعل التفضيل فى الآيتين الكريمتين دلت على ذلك، ومن هنا تكرر فى القرآن كثيرًا الأمر بالتأمل وإدامة النظر فى آيات الله الكونية؛ لأنها أكثر دلالة على الصفات الإلهية من العلم والقدرة والحكمة والإرادة والسمع والبصر ... الخ. ودلالتها على هذه الصفات يقينية برهانية؛ لأنها تثبت له سبحانه بطريق الأولى.

ج- الاستدلال على البعث والحساب والدار الآخرة(٣).

وذلك لأنه سبحانه قد ثبتت قدرته على الخلق أول مرة. والخلق الأول من العدم، ومن خلق أول مرة من العدم يكون قادرًا على إعادة الخلق مرة ثانية بطريق الأولى. قال تعالى: ﴿ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾. وقد تكرر هذا فى القرآن كثيرًا.

ثالثًا: التخلى عن المنهج الجدلى الذى يدعو إلى إثارة الخلاف بين الفرق المختلفة والحرص على الانتصار للمذهب بدلًا من الحرص على نقاط الاتفاق وتنميتها وجمع الكلمة حولها وتلمُّس الأعذار للمخالفين فى الرأى. فربما كان الحق معهم وليس معك . **وليكن كلام الإمام الشافعى رائدًا لنا** فى تلمُّس الأعذار للآخرين حين قال رضى الله عنه : (رأيى صواب يحتمل الخطأ. ورأى غيرى خطأ يحتمل الصواب) ومن حاول أن يثبت العصمة لرأيه أو لمذهبه فقد أعظم الفرية على

---

(١) الروم: ٢٧ .

(٢) الأعراف: ١٨٠ .

(٣) **راجع تفصيلات أكثر فى:** منهج السلف بين العقل والتقليد ص١٥٠-١٥٤ .

الله ورسوله. وقضايا الخلاف المثارة بين الفرق الإسلامية من دقائق الأمور التى يكثر فيها الخطأ إذا ابتعد المجتهدون عن النص المعصوم وهى أيضًا ليست من مسائل الأصول التى ورد بها النص القطعى من الكتاب والسنة فهى قضايا اجتهادية ، ومن هنا كانت مجالًا للرأى والرأى الآخر، والخلاف فيها يدور بين الصواب والخطأ وليس بين الكفر والإيمان ... **يقول ابن تيمية**: والذى نختاره أن لا نكفر أحدًا من أهل القبلة. والدليل على ذلك أن المسائل التى اختلفت فيها مقالات الفرق الكلامية ، **مثل**:

أن الله تعالى هل هو عالم بالذات أو عالم بالعلم ؟

هل هو تعالى خالق لأفعال العباد أم لا؟

وهل هو متحيز أو لا متحيز ؟ هل هو فى مكان وجهة أو هو فى كل مكان؟ ... لا يخلو الأمر إما أن تتوقف صحة الدين على معرفة الحق فيها أو لا تتوقف، والأول باطل، إذ لو كانت معرفة هذه الأصول من الدين لكان الواجب على النبى ﷺ أن يبينها للمسلمين وأن يطالبهم بالإيمان بها، ويبحث عن كيفية اعتقادهم فيها، فلما لم يطالبهم بهذه المسائل؛ بل ما جرى حديث فى هذه المسائل فى زمانه صلى الله عليه وسلم، ولا فى زمان الصحابة والتابعين رضي الله عنهم، علمنا أنه لا تتوقف صحة الإسلام على معرفة هذه الأصول، وإذا كان كذلك علمنا أن الخطأ فى هذه المسائل ليس قادحًا فى حقيقة الإسلام، وذلك يقتضى الامتناع عن تكفير أهل القبلة فيها[1].

فلا يجوز لأحد أن يدعى العصمة لرأيه أبدًا فى هذه المسائل الدقيقة ، وأن يتسع صدره لقبول الرأى الآخر ، ولا يطالب المخالف له باعتناق رأيه أو اتهامه بالكفر إذا خالفه. ويجب العلم أن الخطأ فى هذه الدقائق مغفور للأمة فيه ، ولا يعدم المجتهد هنا أن يحصل على الأجر الواحد إذا أخطأ، فضلًا عن إصابة الأجرين إذا أصاب،

(١) تقريب درء تعارض العقل والنقل ص٧٤ ط مركز الأهرام سنة ١٩٨٨م .

وتسود روح الألفة والمودة بين أصحاب الرأى والرأى الآخر بدلًا من سيطرة الرفض لمجرد المخالفة والتعصُّب للرأى وتبادل الاتهامات بين الفرق وأتباعها، وأن تسيطر روح التعاون على الوصول إلى الحق بدلًا من ترصُّد الأخطاء والتربُّص بالآخر.

إن سيطرة المنهج الجدلى على لغة الحوار فى تراث المتكلمين تشعر الدارس أنه فى معركة يجب أن يحدد موقفه منها منذ البداية ، أما أن تكون أشعريًّا أو معتزليًّا أو تكون صوفيًّا أو سلفيًّا ، وكأن هذه التيارات وتلك المذاهب تأسست لتتعارض وتتقاطع لا لتتعاون وتتآلف.

ومعلوم أن شمولية الإسلام تجمع كل ما هو صحيح فى آراء هذه الفرق وترشد إليه وتأمر به، فالإسلام بشموله يجب أن يستظل به هؤلاء جميعًا، وتسود بينهم روح التسامح والمودة والمناصحة لا المناطحة حتى يكونوا عنوانًا لسماحة الإسلام، ويعملوا على تأليف القلوب بمنهج الترغيب وروح الألفة والتآلف.

رابعًا: حسن الظن بالأئمة المجتهدين المخالفين فى الرأى والمذهب:

نجد كثيرًا من المتكلمين يبنى نقده للرأى المخالف على لوازم يستنبطها هو من الرأى المخالف. ويقول: يلزم على رأيكم كذا أو يلزم على قولكم كذا كذا وكذا ، ويبدأ فى محاكمة المخالف على ما يلزم عن رأيه ويترك مناقشة الرأى الحقيقى (مع أنه قد يكون صوابًا فى نفسه وعلى مراد صاحبه)، ويتفرغ لمناقشة ما يلزم على هذا الرأى من الأخطاء. ومن الأمور المشهورة أن لازم المذهب ليس بمذهب. ومن يقرأ المساجلات الحاصلة بين أتباع المعتزلة والأشاعرة حول علاقة الصفات بالذات أو حول قضية خلق الأفعال، وهل المعرفة شرعية أو عقلية سوف يجد الكثير من هذه الإلزامات التى لا يقصدها ولا يعتقدها صاحب الرأى. وإنما هى أمور يلزمه بها المحاور؛ كقول من ينفى الصفة أنه يلزم على إثبات الصفة القديمة لله تعدد القدماء.

والمفروض أن القديم لا يكون إلا واحد وهو الله. فلزم من ذلك نفى الصفة، وكذلك من ينسب خلق الأفعال إلى لله يقول: إنها لو نسبت للعبد لزم من ذلك وقوع الفعل بين مؤثرين: الله والعبد. والخالق واحد وهو الله ، والأمثلة على ذلك كثيرة. وهذا الأسلوب ينم عن شيء من التربُّص بالآخر وتلمُّس الأخطاء له. وقد أشار إلى ذلك الإمام الغزالى بقوله: «وكان أكثر خوضهم فى استخراج مناقضات الخصوم ومؤاخذاتهم بلوازم مسلماتهم، وهذا قليل النفع فى حق من لم يسلم سوى الضروريات شيئًا ... والإيمان الذى يكتسب عن طريق الجدل والتفريع لا يرقى بحال ما إلى مرتبة إيمان العوام»[1].

ولا شك أن سيادة هذه الروح فى علم الكلام خلقت لدى المقلدين نوعًا من التعصُّب للمذهب الذى يتعارض مع روح العقيدة الإسلامية السمحة التى ينبغى أن يكون دعاتها وعلماؤها نموذجًا ومثالًا لهذا التسامح وليس العكس، وروح شريعتنا قائمة على حسن الظن بالمؤمن فما بالنا بالمشتغلين بالعلوم الشرعية الذين يجب أن تسود بينهم هذه الروح من التسامح وحسن الظن، فكلهم مجتهد وكلهم مثاب إن شاء الله إما بالأجرين وإما بالأجر الواحد.. ومن حقهم (بعضهم على بعض) أن تسود بينهم روح المودة وحسن الظن بديلًا عن المسارعة بالاتهامات وادعاء العصمة للرأى والمذهب. يقول ابن تيمية ناقلًا عن الأئمة: وقد اتفق أهل السنة والجماعة على أن علماء المسلمين؛ لا يجوز تكفيرهم بمجرد الخطأ المحض؛ بل كل أحد يؤخذ من قوله ويرد عليه، وليس من يرد كلامه لخطأ أخطأه يكفر أو يفسق أو يؤثم، ودفع التكفير عن علماء المسلمين وإن أخطأوا هو من أحق الأغراض الشرعية بالمراعاة، فإن تسليط الجهال والمتعالمين على تكفير المسلمين من أعظم المنكرات[2].

(١) المنقذ من الضلال: ص١٣٦.

(٢) الفتاوى لابن تيمية: ١٢/ ٤٦٦ .

خامسًا: أهمية الربط بين الإيمان القلبى والسلوك الأخلاقى الذى تكتمل به عناصر الإيمان العملى (الإسلام) باعتبار أن الغاية والهدف هو أن يكون سلوك المؤمن تطبيقًا عمليًّا للإيمان القلبى، وما لم ينعكس الإيمان القلبى فى سلوك الإنسان استقامة وتخلُّقًا وخضوعًا لأوامر الله ونواهيه تظل الدراسات العقدية نظرية لا أثر لها فى السلوك الإنسانى، ويكون الإيمان بها قاصرًا على مجرد عمل قلبى لا أثر له فى عمل الجوارح. قال الحسن: «لَيْسَ الْإِيمَانُ بِالتَّحَلِّي وَلَا بِالتَّمَنِّي، وَلَكِنْ مَا وَقَرَ فِي الْقَلْبِ، وَصَدَّقَتْهُ الْأَعْمَالُ»(١).

ومن المعلوم أن مفهوم الإسلام هو الجانب التطبيقى العملى لمفهوم الإيمان القلبى، فدليل يقين القلب وإيمانه يكمن فى سلوك صاحبه وتطابقه مع ما فى القلب، ويرتبط بهذه القضية أن الحديث عن زيادة الإيمان ونقصانه يرتبط بالسلوك العملى، وكلما ازداد المرء ارتباطًا بأوامر الله ونواهيه ازداد إيمانه؛ لأن عمل الجوارح دليل عملى على يقين القلب وسلامة الاعتقاد، وانصراف المرء عن هذا الجانب العملى وإهماله دليل على نقصان إيمانه. ويفسر لنا الرسول ﷺ أهمية هذه القضية فى كثير من الأحاديث التى يشير فيها إلى أن كمال الإيمان يرتبط بالسلوك والعمل. قال صلى الله عليه وسلم:

١- «مَنْ غَشَّنَا فَلَيْسَ مِنَّا»(٢).

٢- « لَيْسَ الْمُؤْمِنُ الَّذِى يَبِيتُ شَبْعَانَ وَجَارُهُ جَائِعٌ »(٣).

٣- «الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ، لاَ يَخُونُهُ وَلاَ يَكْذِبُهُ وَلاَ يَخْذُلُهُ، كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ، عِرْضُهُ وَمَالُهُ وَدَمُهُ»(٤).

---

(١) **انظر**: شعب الإيمان للبيهقى: ١/ ١٥٨، أمالى ابن بشران: ص١٤١، مصنف ابن أبى شيبة: ٧/ ١٨٩.

(٢) موارد الظمآن إلى زوائد ابن حبان: ٣/ ٤٤٠ حديث رقم ١١٠٧ .

(٣) شرح معانى الآثار: ١/ ٢٧ .

(٤) مسند البزار: ١٥/ ٣٢٥ .

٤- « لاَ يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ، حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ »[١].

٥- « لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يَكُونَ هَوَاهُ تَبَعًا لِمَا جِئْتُ بِه »[٢].

٦- « لا إِيمانَ لِمَنْ لا أَمَانَةَ لَهُ، وَلا دِينَ لِمَنْ لا عَهْدَ لَهُ »[٣].

٧- «الْإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ شُعْبَةً، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الْإِيمَانِ»[٤].

٨- «عُدِلَتْ شهادةُ الزُّورِ بالإشراك بالله»[٥].

والأحاديث الواردة فى ذلك كثيرة تخرج عن الحصر، والمقصود هنا هو ضرورة الربط بين اكتمال الإيمان وزيادته بالسلوك فى حياة المسلم، وإن سلوك المسلم فى المجتمع دليل وعنوان على صحة إيمانه وسلامة اعتقاده حتى لا تكون العقيدة فى قلب المؤمن أمرًا نظريًّا مبتوتة الصلة بالسلوك والعمل. وما لم تتحول العقيدة فى القلب إلى سلوك وعمل فى حياة المؤمن فلا يكون لها أثر فى حياة المجتمع كله.

سادسًا: ضرورة الإفادة من عطاء العلم الحديث.

ذلك أن العلم قد كشف عن أمور كانت فى سجل الغيبيات وأصبحت واقعًا يعيشه الإنسان تصديقًا لقوله تعالى: ﴿ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ ۚ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾[٦] وقال: ﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴾[٧]. وهذه أمور قد أخبرنا بها الرسول وتحدث عنها القرآن الكريم، وكان حديث الرسول عنها مثار دهشة من المشركين وإنكار. والآن وقد أصبحت حقيقة وواقعًا دلالة على صدق النبى ﷺ فيما بلغ عن ربه ودلالة على

(١) صحيح البخارى، كتاب الإيمان، باب من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه، حديث رقم ١٣ .
(٢) السنة لابن أبى عاصم: ١/ ١٢ .
(٣) موارد الظمآن إلى زوائد ابن حبان: ١/ ١٥٠ .
(٤) الإيمان لابن منده: ١/ ٢٩٤ .
(٥) سنن أبى داود، كتاب الأقضية، باب فى شهادة الزور حديث رقم ٣٥٩٩ .
(٦) الأنعام: ٦٧ .
(٧) سوة ص: ٨٨ .

أن القرآن الكريم لم ينطق به الرسول عن هوى ولا عن حب زعامة أو طلبًا لحكم ورياسة. وصدق الله العظيم ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝﴾[1] وحديث القرآن عن عالم الأفلاك وعالم الأجنة وعالم الحشرات وعالم النبات يحمل الكثير والكثير من هذه النبؤات الرسالية الدالة على صدقه صلى الله عليه وسلم.

وبالإضافة إلى ما سبق فإن العلوم الكونية فى ذاتها باب واسع للوقوف على تجليات أسماء الله وصفاته سبحانه فى كونه من القدرة والعلم والحكمة والإرادة ... الخ. وكل ذلك مفاتيح للعقل المغلق والقلب الشارد أن يتوحدا فى قصده للحق. ولو أن علماء الكلام المعاصرين فتحوا عقولهم وقلوبهم على أسرار الله المودعة فى الكشوف العلمية والقوانين الكونية لما وجدوا عناءً فى إقناع العقول الشاردة وهداية القلوب الضالة؛ لأن الله تعالى جعل مفاتيح خشيته فى التعرُّف على أسرار حكمته فى هذه العلوم.

وقال سبحانه: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾[2]. وهذه دعوة أتوجه بها إلى المشتغلين بعلوم العقيدة والكلام أن يهتموا بمعرفة شيء – ليس كل شيء – من العلوم الكونية وأسرار الله المودعة فى كونه؛ حتى يجمعوا بين المعرفة النظرية (علم الكلام) والتجربة العملية (العلوم الكونية)، فيطمئن القلب، ويتقين العقل، والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم.

سابعًا: أن يهتم عالم الكلام ببيان أمر مهم أرشدنا إليه القرآن الكريم. وهو أن كل مسائل العقيدة ومفرداتها تنتمى إلى عالم الغيب الذى لا سبيل إلى إدراكه بالحواس الظاهرة. ولا قبل للعقل بإدراك مفرداته على سبيل الكنه أو الحقيقة ولم يرد الأمر بذلك فى نص صحيح لا فى الكتاب ولا فى السنة؛ بل إن روح النصوص

(١) النجم: ٤ .
(٢) فاطر: ٢٨ .

تحذر من ذلك؛ لأن إداركها فوق مستوى العقول؛ ولذلك لم يرد نص صحيح يأمرنا بالبحث فى عالم الغيب، ووردت النصوص الكثيرة تأمر العقل وتحثه على البحث فى عالم الشهادة باعتبار ذلك العالم آية دالة على خالقه، وباعتباره أثرًا دالًّا على المؤثر، وباعتباره تجليات لأسماء الله وصفاته، ولهذا كان البحث العقلى فيه مطلوبًا شرعًا ومأمورًا به فى الكثير من الآيات، والفرق واضح بين أن يأمر القرآن العقل ويوظفه فى البحث والكشف عن قوانين عالم الشهادة، ولا يأمره؛ بل ينهاه عن البحث فى عالم الغيب. ذلك أن الله زود العقل بأدوات البحث فى عالم الشهادة من الحواس الخمسة، ولم يجعل للعقل سبيلًا إلى التعرُّف على عالم الغيب إلا الإيمان بما ورد عنه فى القرآن الكريم على مراد الله منه. وهذا يعنى أن معظم الأسئلة الكلامية حول قضايا علم الكلام، وليس فى دائرة المأمور بها، وهى من فضول العمل العقلى وليست من واجباته، والأولى منها أن يشتغل المتكلم بالأسئلة التى تربط العقيدة بالسلوك والعمل؛ لأن هذا هو مجال زيادة الإيمان ونقصانه. نعم العمل بمقتضى العقيدة هو مجال التفاضل الحقيقى، وليست الأسئلة التقليدية المطروحة فى ساحة الحوار بين المتكلمين. وهكذا نرى أن دائرة اهتمام علم الكلام المعاصر يجب أن تتسع لتشمل الدفاع عن الإسلام كله، أصوله وفروعه؛ لأن السهام الموجهة إلى الإسلام تعمل على اجتثاثه من أصوله (فكرًا وعقيدة وسلوكًا وثقافة) حتى يتخلص المجتمع من عباءة الإسلام وسيظل – لا قدر الله – بعباءة ثقافة الغرب.

قضايا جديدة معاصرة

ليست مهمة علم الكلام الجمود على قضايا معينة أبان عصر النشأة والتكوين، وبالتالى فإن وظيفة عالم الكلام لم تكن جامدة ولا متوقفة على معالجة قضايا بعينها؛ ولكن كانت مهمة عالم الكلام مهمة حركية وليست جامدة، متطورة وليست متوقفة، وقد أشرنا فى مقدمة هذا العمل كيف كان المتكلمون الأوائل يتابعون

ويتتبعون الشبهات التى يثيرها أعداء الإسلام، ويلاحقونها زمانًا ومكانًا، ولم يتوقف عملهم عند قضية بعينها، ولا عند تقليد أمام بعينه، وإنما كانوا حراسًا للعقيدة فى كل زمان وفى كل مكان وصلوا إليه.

ولكن هذه الوظيفة الحركية قد تجمدت عند علماء الكلام المتأخرين، وجمد عملهم على:

١- إثارة القضايا القديمة التقليدية.

٢- مناصرة المذهب الذى ينتمون إليه.

٣- تفنيد آراء المذاهب الكلامية الأخرى.

٤- انصرف جهادهم من الحوار مع الخارج إلى الحوار مع الداخل، وترتب على جمود علماء الكلام عند هذه القضايا أن تحولت الخلافات مع الخارج إلى خلافات مذهبية داخلية كما سبق أن أشرنا إلى ذلك.

والآن نريد أن نصحح مسار علم الكلام ونعود به إلى إحياء وظيفته الأساسية، ومتابعة مشكلات عصرنا نحن بدلًا من إثارة القضايا الخلافية القديمة.

لم تعد مشكلة المسلم المعاصر هى البحث فى هل الصفات عين الذات أو غيرها، ولا هل الاستطاعة سابقة على الفعل أو مقارنة، إن مشكلة المسلم المعاصر أكبر من ذلك بكثير. فلقد تداعت الأمم على المسلمين كما تتداعى الأكلة إلى قصعتها، كما حدثنا الرسول ﷺ[1].

وأصبحت القضية الأساسية هل نكون أو لا نكون؟ وهذا هو السؤال الأكبر؛

(١) إشارة إلى حديث: « يُوشِكُ الأُمَمُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمْ كَمَا تَدَاعَى الأَكَلَةُ إِلَى قَصْعَتِهَا » . فَقَالَ قَائِلٌ: وَمِنْ قِلَّةٍ نَحْنُ يَوْمَئِذٍ؟ قَالَ: « بَلْ أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ وَلَكِنَّكُمْ غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَّيْلِ وَلَيَنْزِعَنَّ اللهُ مِنْ صُدُورِ عَدُوِّكُمُ الْمَهَابَةَ مِنْكُمْ وَلَيَقْذِفَنَّ اللهُ فِى قُلُوبِكُمُ الْوَهَنَ » . فَقَالَ قَائِلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ، وَمَا الْوَهَنُ؟ قَالَ: « حُبُّ الدُّنْيَا وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ » . سنن أبى داود، كتاب الملاحم، باب فى تداعى الأمم على الإسلام، حديث رقم ٤٢٩٧ .

هل نكون مسلمين أو نكون كما يريد لنا الآخر أن نكون؟

إن السهام الموجهة إلى العقيدة الإسلامية أكثر خطورة من الأسئلة التقليدية المثارة فى علم الكلام. وينبغى لعالم الكلام المعاصر أن يضع هذه القضايا المعاصرة فى أوليات بحوثه ليجد لها مكانًا فى جدوله الدراسى مع أبنائه من طلبة العلم؛ لأن تعريف المسلم المعاصر بخطورة هذه القضايا أولى وأهم من القضايا التقليدية التى لم تعد تمثل واقعًا فى حياته.

لقد انشغل علماء الكلام المعاصرين عن قضايا العصر، وصرفوا طلبة العلم معهم إلى الاهتمام بالقضايا التقليدية الخلافية المذهبية، فنشأ جيل من الشباب على التمسُّك بالعصبية المذهبية ورفض الآخر والتطرُّف فى الأحكام. وتركوا ساحة الحوار الثقافى للتيارات الثقافية الوافدة، فملأت الساحة ضجيجًا، وشوهت عقول الشباب، وزيفت وعيهم بحقائق وأصول عقيدتهم. فسمعنا من يتهم القرآن بالتناقض، وسمعنا من ينكر وجود الخالق ،ويقول بفعل البيولوجيا فقط، وهذه الأفكار سمعناها على شاشات التلفاز فى برامج تمول من جيوب دافعى الضرائب فى مصر. وهى تنخر فى عقائد المسلمين كما ينخر السوس فى عظام الأحياء.

إن من أولويات عالم الكلام المعاصر أن يهتم بمشكلات العصر، ولا يجمد نشاطه عند القضايا التقليدية، ولا فى تقليد مذهب بعينه؛ وإنما يتحرك بعقله الناقد، يتناول مشكلات العصر معرفة وفهمًا ثم نقدًا وتمحيصًا؛ ليكون بذلك أمينًا على وظيفة علم الكلام، ولعل من المناسب أن نطرح بعض القضايا التى تفرض نفسها على الواقع الآن، ولابد من مواجهتها بمنهج علمى وبرهانى وليس بالوعظ والإرشاد.

١- **القول بتاريخية القرآن**. وتتلخص فى القول بأن القرآن الكريم ليس وحيًا إلهيًا، وإنما هو منتج ثقافى أفرزته البيئة الثقافية التى عاشها ﷺ.

وهذه القضية تفرعت عن قضية أكبر منها وهى أن :

٢- **القول بتاريخية الأديان** بمعنى أن الدين ظاهرة اجتماعية مثلت مرحلة تاريخية فى حياة الإنسان الأول؛ حيث كان يفسر الظواهر الطبيعية تفسيرًا لاهوتيًا غيبيًا خرافيًا.

٣- وتفرع عنها **القول بإنكار الوحى وأن محمد ﷺ دعيًا وليس رسولًا**... هكذا يقولون، ولعنهم الله حين قالوا ..

٤- **العلمانية (الثقافية والسياسية) وموقفها من الوحى والمقدس**.

٥- **وظيفة العقل بين عالم الغيب وعالم الشهادة**. وكيف أرشد القرآن إلى حسن توظيف العقل فى عالم الشهادة والإيمان بعالم الغيب.

٦- **السنن الإلهية وأثرها فى حركة التاريخ** (سياسيًا، واجتماعيًا، وكونيًا).

٧- **حرية الاعتقاد**. وهذه القضية تعتبر من مقاصد الشريعة الإسلامية. حماية عقيدة المسلم وحماية عقيدة غير المسلم على أصحابها، ولا يظنن أحد أن حماية عقيدة غير المسلم ليست من وظيفة الدولة الإسلامية. إن هذا وهم كاذب وظن خاطئ يرفضه الإسلام ولا يقره. ونصوص الكتاب والسنة وسيرة الرسول ﷺ توضح ذلك وتؤكده. قال تعالى: ﴿ **وَلَا تَسُبُّواْ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّواْ ٱللَّهَ عَدۡوَۢا بِغَيۡرِ عِلۡمٖ** ﴾ [١]. وفى سيرة الرسول ﷺ كثير من الأمثلة والنصائح والوصايا بذلك. وهذا لا يتعارض مع الدعوة إلى الله بالتى هى أحسن. قال تعالى: ﴿ **ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ** ﴾ [٢].

٨- **الإنسان وقضاياه**. الإنسان فى الإسلام قيمة كرمها الله فى ذاتها بصرف

(١) الأنعام: ١٠٨ .

(٢) النحل: ١٢٥ .

النظر عن دينها وثقافتها وجنسها. قال تعالى: ﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ ﴾ [1] وبنو آدم عام وشامل لكل إنسان. وهذا التكريم الإلهى له متطلباته ومقتضياته من الإنسان للإنسان، فالبنية الإنسانية التى كرمها خالقها لا يجوز لأحد إهانتها ولا النيل من كرامتها إلا بحقها الشرعى التى أقرته وحددته الشرائع السماوية. ولك أن تلاحظ منطوق الآية الكريمة: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ ﴾ أى جعلناه فى ذاته مكرمًا بخلاف ما إذا قيل أكرمنا بنى آدم، بمعنى قد قدمنا له شيئًا أكرمناه به فلا يكون التكريم هنا ذاتيًا.

ولذلك كان من مقومات هذا التكريم أن الله تعالى عاتب إبليس على امتناعه عن السجود لآدم، فقال سبحانه لإبليس: ﴿ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾ [2]. فجعل سبحانه مناط التكريم للإنسان أن خلقه الله بيديه، فلا يجوز لحاكم أو لطاغية أو لمسئول أيًّا كان موقعه أن يهين إنسانًا جعله الله كائنًا مكرمًا إلا بحقه الشرعى؛ لأن فى ذلك عدوانًا على الله وعلى شريعته.

وهذا من مقاصد الشريعة التى قررها الفقهاء (حفظ النفس والفعل والمال والدين والعرض)، وكلها مقاصد تحفظ على الإنسان كرامته تحت أى نظام سياسى أو اجتماعى أو ثقافى، ولم توضع دساتير العالم إلا لحفظ كرامة الإنسان وحقوقه التى جسدها القرآن الكريم فى هذا القرار الإلهى ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ ﴾ .

٩- **أن يهتم عالم الكلام بآداب الخلاف والاختلاف** ؛ لأن الخلاف بين المذاهب الكلامية لا ينبغى أن يقود مقلدى المذاهب إلى الاختلاف؛ خاصة أن

---

(١) الإسراء: ٧٠ .

(٢) سورة ص: ٧٥ .

معظم القضايا الخلافية لا تمس صحيح الاعتقاد؛ فضلًا عن أن أكثر الخلاف فيها لفظى وشكلى وليس جوهريًا، وقد علمنا الرسول ﷺ كيف يكون الخلاف موسومًا بأخلاق الإسلام وآدابه، فقد كان صلى الله عليه وسلم نعم المعلم والمربى فى ذلك حين قال لمخالفيه فى العقيدة، كما يحكى القرآن ذلك، قال تعالى: ﴿ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡ ﴾ [1]، ﴿ قُل لَّا تُسۡـَٔلُونَ عَمَّآ أَجۡرَمۡنَا وَلَا نُسۡـَٔلُ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ۝٢٥ قُلۡ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفۡتَحُ بَيۡنَنَا بِٱلۡحَقِّ وَهُوَ ٱلۡفَتَّاحُ ٱلۡعَلِيمُ ۝٢٦ ﴾ [2].

وذلك بعد أن أقام عليهم الحجة وبين لهم المحجة. ولم يكن صلى الله عليه وسلم فظًّا ولا غليظ القلب فى محاوراته مع مخالفيه. ويجب أن يكون ذلك السلوك التربوى مثلًا ونموذجًا للمختلفين فى الرأى.

* * *

(١) الشورى: ١٥ .

(٢) سبأ: ٢٥-٢٦ .

أصول العقيدة

التوحيد دين جميع الأنبياء:

تأسست العقيدة الإسلامية على التوحيد الخالص لله تعالى، والإيمان به ربًا خالقًا وإلهًا معبودًا، وجسدت عقيدة التوحيد جوهر الأديان السماوية الثلاثة، اليهودية، والمسيحية، والإسلام، وهى قطب الرحى فى الخطاب الإلهى لجميع الرسل والأنبياء، كلمتهم على ذلك واحدة من أولهم إلى آخرهم، ونداؤهم إليها واحد: ﴿ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ ﴾ [1] خاطب بها كل نبى قومه وأشار إليها القرآن الكريم باعتبارها العقيدة، الجامعة لدين الأنبياء والمرسلين قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُ﴾ [2]. وقال سبحانه: ﴿ وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴾ [3]. كما تواصى بها جميع الأنبياء فيما بينهم، ابتداء من أبى الأنبياء إبراهيم إلى خاتمهم محمد -صلى الله عليهم جميعًا وسلم-قال تعالى: ﴿ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبۡرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعۡقُوبُ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴾ [4] ، وتوارث هذه الوصية ذريته من بعده، فقال يعقوب لذريته: ﴿ مَا تَعۡبُدُونَ مِنۢ بَعۡدِي قَالُواْ نَعۡبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗا وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴾ [5]، ودعا بها موسى ربه فقال: ﴿ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَتَوَفَّنَا مُسۡلِمِينَ﴾ [6]، كما دعا إليها عيسى قومه فقال لهم: ﴿ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ واستجاب لها الحواريون فقالوا لعيسى عليه السلام: ﴿ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ﴾ [7]. ومن قبلهم دعا بها نوح عليه السلام فقال لقومه: ﴿ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ

(١) هود: ٥٠ .
(٢) آل عمران: ١٩ .
(٣) آل عمران: ٨٥ .
(٤) البقرة: ١٣٢ .
(٥) البقرة: ١٣٣ .
(٦) الأعراف: ١٢٦ .
(٧) آل عمران: ٥٢ .

﴿ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ (١).

وكانت هذه العقيدة هى الدعوة الجامعة على لسان أبى الأنبياء إبراهيم لذريته من بعده فقال: ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ (٢). فاستجاب له ربه وبعث فى الذرية من يحمل لواء هذه الدعوة الخاتمة، دعوة التوحيد ملة إبراهيم حنيفًا، وجاءت الرسالة الخاتمة تصديقًا لدعوة الرسل السابقين إلى التوحيد الخالص لله، وحملت شعار الأنبياء السابقين: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ ﴿١٦٣﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ (٣).

ومن ثم فقد استقرت عقيدة التوحيد على أنها دين جميع الأنبياء والمرسلين قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ (٤). كان الاعتقاد فيها والإيمان بها هو الحد الفاصل بين الإيمان بدين الأنبياء قاطبة والجحود بها قال تعالى: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾ (٥)، وأصبحت هذه العقيدة أساسًا ومحورًا لكل تشريع ضابط لحركة الإنسان اليومية فى صباحه ومسائه، فى غدوه ورواحه وفى علاقاته المختلفة سواء فى ذلك علاقته بالله والكون، علاقته بنفسه، وبالمجتمع وما فيه، وجسد الرسول ﷺ هذه الأسس الجامعة فى قوله: «**لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعًا لما جئت به**»(٦).

ولقد بيَّن القرآن الكريم الأصول الجامعة لهذه العقيدة والمسائل المتفرعة عنها. كما أشار فى آياته الكريمة إلى دلائل هذه المسائل، وأقام البراهين على صحتها، فجمع

(١) يونس: ٥٢ .
(٢) البقرة: ١٢٨ .
(٣) الأنعام: ١٦٢ .
(٤) الشورى: ١٣ .
(٥) البقرة: ١٣٠ .
(٦) أخرجه البخارى فى: قرة العينين برفع اليدين فى الصلاة حديث رقم ٤٣ ص ٣٨ .

فى آياته بين أصول الاعتقاد، ومسائل الاعتقاد، ودلائل هذه المسائل، ولم يترك لأحدٍ فيها مقالًا بالزيادة عليها؛ أو النقصان منها، واجتمع عليها جيل الصحابة فى عصر النبوة، ومن بعدهم جيل التابعين وتابعو التابعين، وتلقاها خلف الأمة جيلًا بعد جيل عن سلفهم، ينقلها السابق منهم إلى اللاحق، بدون تحريف ولا تبديل، فحملها من كل جيل عُدُولهُ حفظًا لها وعملًا بمقتضاها. مؤمنين بحفظ الله لها فى كتابة الكريم الذى تعهد الله بحفظه وبيانه، قال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ (١).

أصول العقيدة:

وقد جمع القرآن الكريم أصول هذه العقيدة فى قوله تعالى: ﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ (٢)، وفى آخر سورة البقرة يقول سبحانه: ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ﴾ (٣).

وفى الحديث المتفق عليه عن أَبِى هُرَيْرَةَ قَالَ: كَانَ رَسُولُ الله ﷺ يَوْمًا بَارِزًا لِلنَّاسِ فَأَتَاهُ رَجُلٌ: فَقَالَ يَا رَسُولَ الله مَا الإِيمَانُ ؟ قَالَ: « أَنْ تُؤْمِنَ بالله وَمَلاَئِكَتِهِ وَكِتَابِهِ وَلِقَائِهِ وَرُسُلِهِ وَتُؤْمِنَ بِالْبَعْثِ الآخِرِ » . قَالَ: يَا رَسُولَ الله، مَا الإِسْلاَمُ؟ قَالَ: « الإِسْلاَمُ أَنْ تَعْبُدَ اللهَ وَلاَ تُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَتُقِيمَ الصَّلاَةَ الْمَكْتُوبَةَ وَتُؤَدِّىَ الزَّكَاةَ الْمَفْرُوضَةَ وَتَصُومَ رَمَضَانَ » . قَالَ: يَا رَسُولَ الله، مَا الإِحْسَانُ؟ قَالَ: « أَنْ تَعْبُدَ الله

(١) الحجر: ٩ .
(٢) البقرة: ١٧٩ .
(٣) البقرة: ٢٨٥ .

كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنَّكَ إِنْ لاَ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ » . قَالَ: يَا رَسُولَ الله ، مَتَى السَّاعَةُ؟ قَالَ: « مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ وَلَكِنْ سَأُحَدِّثُكَ عَنْ أَشْرَاطِهَا إِذَا وَلَدَتِ الأَمَةُ رَبَّهَا فَذَاكَ مِنْ أَشْرَاطِهَا، وَإِذَا كَانَتِ الْعُرَاةُ الْحُفَاةُ رُءُوسَ النَّاسِ فَذَاكَ مِنْ أَشْرَاطِهَا، وَإِذَا تَطَاوَلَ رِعَاءُ الْبَهْمِ فِى الْبُنْيَانِ فَذَاكَ مِنْ أَشْرَاطِهَا، فِى خَمْسٍ لاَ يَعْلَمُهُنَّ إِلاَّ اللهُ » . ثُمَّ تَلاَ صلى الله عليه وسلم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿٣٤﴾﴾[1] » . قَالَ: ثُمَّ أَدْبَرَ الرَّجُلُ فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «رُدُّوا عَلَىَّ الرَّجُلَ». فَأَخَذُوا لِيَرُدُّوهُ فَلَمْ يَرَوْا شَيْئًا . فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: « هَذَا جِبْرِيلُ جَاءَ لِيُعَلِّمَ النَّاسَ دِينَهُمْ »[2].

وأجمعت الأمة خلفًا عن سلف على الإيمان بهذه الأصول، واتفقت عليها كلمتهم وتلقاها الأئمة بالقبول والإذعان فدعوا إليها؛ وحرروا مسائلها وضبطوا أدلتها وبراهينها جامعين فيها بين أدلة النقل الصحيح والعقل الصريح، مهتدين بنور الوحى ونور العقل دون مظنة للتعارض أو التضاد بين النورين، معتقدين أن المؤمنين بهذه العقيدة هم أهل الولاية لله ورسوله، وأن الإيمان بها اسم جامع لاعتقاد القلب ويقينه، ونطق اللسان وإقراره، وعمل الجوارح وإذعانها، وأن يقين القلب بها هو الأساس لعمل الجوارح واشتغالها بالأوامر فعلًا، والنواهى تركًا وكرهًا، ومؤمنين أن كمال الإيمان وتمامه؛ لا يكون إلا بالجمع بين أعمال القلب تيقنًا وإيمانًا، وإعمال الجوارح خضوعًا وإذعانًا.

وأجمعوا على أن الإيمان يزيد بكثرة الطاعات وينقص بالمعاصى والموبقات، وإن

---

(١) سورة لقمان: ٣٤ .

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه كتاب الإيمان حديث رقم ٥٠ وغيره من المواضع، وأخرجه مسلم كتاب الإيمان، حديث رقم ١٠٦ .

المعاصى لا تخرج المؤمنين عن الملة صغيرة كانت المعصية أو كبيرة؛ ما دام القلب بالله مؤمنًا، وبالأوامر والنواهى مقرًا ومتيقنًا، ولا كفران إلا بجحود ونكران لما هو معلوم من دين الله بالضرورة.

وأهل القبلة هم أهل الملة، يصلى وراء البر منهم والفاجر، ووراء مستور الحال، ولا يقطع على واحد منهم بالجنة أو النار: فـ «**من صلى صلاتنا، واستقبل قبلتنا، وأكل ذبيحتنا، فهو المسلم له ذمة الله ورسوله**»(١).

وشفاعة الرسول حق لأهل الملة، تنال أهل الكبائر، فلا يحرمون من شفاعته صلى الله عليه وسلم، قال ﷺ: «**شفاعتى لأهل الكبائر من أمتى**»(٢).

وأصل الإيمان بالله تعالى يتضمن الإيمان بوجوده سبحانه، والإيمان بوحدانيته وأنه واحد فى ذاته، فلا ند له، وواحد فى أسمائه، فلا مسمى له، وواحد فى صفاته، فلا مثيل له، وواحد فى أفعاله، لا شريك له، وجماع توحيده سبحانه، أن يقر المؤمن بإفراده سبحانه بالعبادة والإخلاص فى القصد فى طاعته فيما أمر ونهى.

وأنه سبحانه أول بلا ابتداء، وآخر بلا انتهاء، وأدلة وجوده سبحانه فاقت الحصر فلا يحيط بها عد. فقد فطر القلوب على معرفته، وجبلها على محبته والإيمان به، وجاء الوحى فزاد الفطرة نورا وهداية، ونبهها إلى ما هو مغروز فيها وأصيل فى بنيتها، قال النبى ﷺ: «**كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه**»(٣)، ثم نبه الوحى العقول إلى دلائل وجوده سبحانه، ودلائل وحدانيته بما أبهر العقول، وحير الألباب من الآيات المبثوثة فى الآفاق والأنفس؛ فى كتاب الكون

(١) صحيح البخارى ١/ ٨٣ حديث رقم ٣٨١ .

(٢) مسند الإمام أحمد ٢٠/ ٤٣٩ حديث رقم ١٣٢٢٢ .

(٣) مسند الإمام أحمد ١٢/ ١٠٤ حديث رقم ٧١٨١ .

المنظور، وخاطبهم بلغة البرهان ودلائل اليقين فى كتاب الله المسطور: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ۝٣٥ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾ (١)، ﴿هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ (٢).

كما نبه القرآن الكريم إلى الإيمان بصفات الله العليا، وأسمائه الحسنى، كما ورد بها الذكر الحكيم من غير تحريف ولا تبديل، سواء فى ذلك؛ صفات الذات، كالسمع، والبصر، والعلم، والإرادة، والحياة، أم صفات الأفعال، كالخلق، والرزق، والإحياء، والإماتة، أم الصفات الخبرية، كالمجيء، والإتيان، والاستواء.

وأنه تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ (٣)، فأثبت لنفسه أصل الصفات، ونفى المماثلة مع خلقه، فيؤمن المسلم بجميع ما وصف نفسه به فى كتابه، وعلى لسان رسوله ﷺ دون تساؤل عن الكيف فيثبتونها على ما يليق به سبحانه من الكمال والجلال دون تمثيل، ولا تعطيل، ولا تحريف، وكما أن ذاته ليس كمثلها شيء، فإن صفاته سبحانه ليس كمثلها شيء، وإن القول فى صفاته وأسمائه؛ كالقول فى ذاته سبحانه، يحتذى فيها حذوه، فما أثبته القرآن أثبتوه، وما نفاه القرآن نفوه وما سكت عنه القرآن سكتوا عنه دون سؤال عن الكيفية، فلا يحيط بها وهمٌ، وهم مجمعون على الإثبات بلا تمثيل، والتنزيه بلا تعطيل.

الإيمان بالغيب:

وأجمعوا على الإيمان بكل ما أخبر به القرآن، وجاءت به السنة الصحيحة من أمور الغيب.

ومنها الإيمان بالملائكة، وأنهم عباد الله مكرمون مفطورون على طاعته: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ (٤)، وأنهم مخلوقون من نور، وهم مكلفون

(١) الطور: ٣٥ .
(٢) لقمان: ١١ .
(٣) الشورى: ١١ .
(٤) التحريم: ٦ .

بما أمرهم الله به من أعمال، فمنهم حملة العرش: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ﴾ (١)، ومنهم حملة الوحى كجبريل: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ۝١٩٣ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ (٢)، ومنهم ملك الموت، ومنهم خازن الجنان، ومنهم الحفظة، والكرام الكاتبين.

ومن الإيمان بالغيب؛ الإيمان بعالم الجن، وأنهم مكلفون، فمنهم المسلم والكافر، قال تعالى: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ۝٢﴾ (٣) ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ ۖ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا﴾ (٤).

ومن الإيمان بالغيب؛ الإيمان باليوم الآخر، وبالبرزخ، وعذاب القبر، وأن القبر إما روضه من رياض الجنة، أو حفرة من حفر النار، قال تعالى: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ (٥).

وأن القبر أول منازل الآخرة، وللساعة أشراطها وعلامتها؛ منها الأشراط الكبرى، كخروج الدابة، ونزول المسيح عيسى ابن مريم يدعو إلى الإسلام، وقبله نزول المسيح الدجال، ومنها العلامات الصغرى، كبعثة محمد ﷺ، وتطاول رعاة الإبل فى البنيان.

ومن مسائل اليوم الآخر الإيمان بالبعث والحساب، والجنة والنار، والصراط والميزان، والحوض، لورود النصوص الصحيحة الصريحة بذلك.

الإيمان بالقدر:

والإيمان بالقضاء والقدر؛ الذى هو سر من أسرار الله فى خلقه، حجب علمه عن النبى المرسل والملك المقرب، فلا يعلمه إلا هو، والإيمان به أصل فى الإقرار لله

(١) الحاقة: ١٧ .
(٢) الشعراء: ١٩٣-١٩٤ .
(٣) الجن: ١-٢ .
(٤) الجن: ١٤ .
(٥) غافر: ٤٦ .

بربوبيته على خلقه قضاء وقدرًا وتدبيرًا، وإرادة وحكمة ومشيئة، فنؤمن بالعلم الشامل لكل ما كان وما يكون وما هو كائن، وأن كل ذلك مكتوب ومقدر فى اللوح المحفوظ وفقًا لعلمه السابق بذلك، وأن مشيئته نافذة فى خلقه إلى يوم القيامة، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، فيهدى المؤمنين به تفضلًا منه ورحمة، ويضل من عصاه عدلًا منه وحكمةً، فلا راد لقضائه، ولا معقب لحكمه، ولا غالب لأمره، وإن للعباد مشيئة: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ (١)، ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ (٢)، وما أصاب العبد لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم لكن ليصيبه، وما قضى الله به كونًا فهو كائن لا محالة، ولا يجوز لأحد الاحتجاج بالقدر على معصية ارتكبها أو سيئة نالها. لأن تلك الحجة داحضة غير نافعة لأصحابها.

وقد اتفق الأئمة من السلف والخلف على هذه الأصول التى أجمع عليها أهل السنة والجماعة، ولا خلاف بين الأئمة حولها، فذكروها مسألة مسألة. فذكروا فى مقام الإلهيات ما أجمع عليه سلف الأمة من الإيمان بوجود الله، ووحدانيته، وأسمائه وصفاته، فذكر صفات الذات، والصفات الخبرية، وقال إن صفاته سبحانه كلها على الحقيقة ولا شيء منها على المجاز، لأن المجاز عندهم نوع من الكذب(٣)، وأن وصفه بها من غير تكييف، وأن الإيمان به واجب وترك التكييف لازم(٤)، وأن أمره وقوله غير محدث ولا مخلوق، وهو سبحانه وتعالى يرضى عن الطائعين ويحبهم، ويغضب على العصاة ويسخطهم، وأنه فوق سماواته على عرشه: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ (٥) واستواؤه على عرشه ليس استيلاء لأنه سبحانه لم يزل مستوليًا على كل شيء، وأن المؤمنين يرونه يوم القيامة على ما أخبر سبحانه:

---

(١) الكهف: ٢٩ .
(٢) الإنسان: ٣٠ .
(٣) انظر: رسالة أبو الحسن الأشعرى، ص ٦٥ .
(٤) المرجع السابق ص ٧٢ .
(٥) فاطر: ١٠ .

﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ [1]، وإنه يضل من يشاء عدلًا وحكمة، ويهدى من يشاء تفضلًا ونعمة، فلا يسأل عما يفعل لأنه سبحانه فعال لما يريد، وإنه عادل فى جميع أفعاله وأحكامه ساءنا ذلك أم سرنا، نفعنا ذلك أم ضرنا، وأنه قدر جميع أفعال خلقه وآجالهم وأرزاقهم قبل خلقهم، وأثبت ذلك فى اللوح المحفوظ، كما قال سبحانه: ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي ٱلزُّبُرِ ﴾[2]، وأنه سبحانه كلَّف عباده فعل الطاعات ونهاهم عن فعل المعاصى بعد أن أقدرهم على ذلك بسلامة الأدوات وصحة الأبدان، لأنه سبحانه عدلٌ، فلا يكلف نفسًا إلا وسعها، وأنه سبحانه تفضل على من يشاء فحبَّب إليهم الإيمان وزينه فى قلوبهم، وكرَّه إليهم الكفر والفسوق والعصيان تفضلًا منه ونعمة، وأنه لم يضل إلا الضالين والفاسقين والظالمين والكافرين، فهدى من اهتدى، وضل من أضل نفسه بسلوكه سبل الضلالة والغواية، وليس لأحدٍ أن يعترض على الله فى شيء من تدبيره، ولا إنكار شيء من أفعاله، لأنه سبحانه حكيمٌ، قبل أن يفعل سائر الأفعال، وأن جميع أفعاله لا تخرج عن الحكمة، وأن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر واجب على الأمة بأيديهم وألسنتهم، إن استطاعوا ذلك، وإلا فبقلوبهم، وأنه لا يجب ذلك عليهم بالسيف، ولا بالقتال، إلا فى اللصوص والقطاع بعد مناشدتهم.

الإيمان بجميع الأنبياء وكتبهم:

كما أجمعوا على وجوب الإيمان بكتب الله المنزلة على رسله، كصحف إبراهيم، والتوراة، والإنجيل، وزبور داود، والقرآن الكريم، وإن إنكار الواحد منها كالإنكار لجميعها، وإن كلها كلام الله منه بدأ وإليه يعود، وأن ما نالته يد التحريف منها ليس مما نزل به وحيه على رسله، وما صح منها يصدق بعضه بعضًا، وأن

(١) القيامة: ٢٢-٢٣ .
(٢) القمر: ٥٢ .

القرآن آخرها جاء مصدقًا لما بين يديه من الكتب السابقة؛ كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ ۝١٨ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾ (١).

وكذلك يجب الإيمان بجميع النبيين والمرسلين، ما ورد ذكرهم في القرآن الكريم تفصيلًا، وما لم يرد ذكره إجمالًا، فلا نفرق بين أحد من رسله، وتكذيب الواحد منهم كالتكذيب لجميعهم، وهم أفضل الخلق وأكرمهم على الله، ومنهم أولوا العزم الذين ورد ذكرهم تفصيلًا في القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ (٢).

وقد أيد الله جميعهم بالمعجزات الدالة على صدقهم، في دعوتهم إلى الله برسالاته ووحيه، وأنهم معصومون من الدنايا والخطايا كبيرها وصغيرها بعد بعثتهم، وذلك بحفظ الله لهم وعصمتهم من القبائح، وهم موصفون بأحسن الأوصاف وأفضلها، من الصدق، والفطانة، والتبليغ، والأمانة، ويستحيل في حقهم الكذب، والخيانة، والسهو والنسيان في التبليغ، وشأن الدعوة والرسالة، وهم كبقية البشر يمرضون ويصحّون ويجرى عليهم ما يجرى على غيرهم، من الفقر، والمرض، والأكل، والشرب، والنوم، والزواج، والإنجاب، والحياة، والموت، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ (٣).

وهم في الأفضلية على ترتيب القرآن لهم، قال تعالى: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ (٤)، أفضلهم أولو العزم، وأولو العزم منهم خمسة أشارت إليهم الآية: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ

(١) الأعلى: ١٨- ١٩.
(٢) الشورى: ١٣.
(٣) الكهف: ١١٠.
(٤) البقرة: ٢٥٣.

﴿وَعِيسَىٰٓ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ﴾ وأفضل أولو العزم محمد ﷺ وهم جميعًا أخوة علات دينهم واحد وهو التوحيد والإسلام، وأمهاتهم شتى، وخص الله كل رسول بمعجزة تأييدًا له وتصديقًا له فى دعوته، فكانت معجزة إبراهيم فى عدم إحراق النار له، ومعجزة موسى تعددت مظاهرها من العصا واليد وغيرها، ومعجزة عيسى إبراء الأكمه، والأبرص، وإحياء الموتى، وكلها كانت معجزات حسية، ومؤقته انقضى أثرها بانقضاء زمانها أما خاتم الأنبياء محمد ﷺ فقد أيده الله بما سبق لإخوانه من الأنبياء بمعجزات حسية، كتسبيح الحصى، وتكثير الطعام، والإسراء والمعراج، ثم أيده بمعجزة معنوية، خالدة خلود الأبد، وهو القرآن الكريم، فوجب الإيمان بها جملة وتفصيلًا.

وأجمعوا على السمع والطاعة لأئمة المسلمين، وكل من ولى شيئًا من أمورهم عن رضى أو غلبة، واشتدت وطأته من برٍ وفاجرٍ لا يلزمهم الخروج عليهم بالسيف جار أو عدل، وعلى أن يغزو معهم العدو، ويحج بهم ويصلون خلفهم؛ الجمع، والأعياد، والجماعات.

وأجمعوا على أن خير القرون، قرن الصحابة ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، وخير الصحابة أهل بدرٍ، وخير بدرٍ العشرة المبشرون بالجنة، وخير العشرة الخلفاء الراشدون الأربعة، وأن ترتيبهم فى الفضل حسب ترتيبهم فى الخلافة، أبو بكر، فعمر، فعثمان، فعلىّ، وأن إمامتهم كانت عن رضى منهم جميعًا، وإن جيل الصحابة، خير من جيل التابعين، وأجمعوا على الكف عما شجر بين الصحابة، فلا يذكرون الصحابة إلا بخير، وأنهم أحق أن تنشر محاسنهم، وتتلمس لهم أحسن المعاذير وأفضل المخارج لأفعالهم، وأن نظن بهم الظن الحسن لقوله صلى الله عليه وسلم: «**إذا ذكر أصحابى فأمسكوا**»[1].

(١) رواه مسلم ٧/ ١٨٨ باب تحريم سب الصحابة .

وقوله: «**لا تؤذونى فى أصحابى فوالذى نفسى بيده لو انفق أحدكم مثل أحدٍ ذهبًا ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه**»[1] وما وقع بينهم من خلافات دنيوية لا يسقط حقهم فى الفضل والخير.

وأجمعوا على وجوب النصيحة للمسلمين، وأئمتهم والدعاء لهم، والتبرى من ذم أحدٍ من أصحاب رسول الله وأهل بينه. يقول أبو الحسن الأشعرى: «فهذه الأصول التى مضى الأسلاف عليها، واتبعوا حكم الكتاب والسنة بها، واقتدى بهم الخلف الصالح فى مناقبها، نفعنا الله وإياكم باجره، والحمد لله وحده، وهو حسبى ونعم الوكيل»[2].

وهذه المسائل التى أجمع عليها سلف الأمة تمثل ثوابت العقيدة الإسلامية التى لا مجال فيها للقول بالرأى والاجتهاد، وقد حفظ القرآن الكريم لنا هذه الأصول، وتلقتها الأجيال بالقبول جيلًا بعد جيل، واستقرت عليها كلمة المسلمين، ولا يجوز لأحد إن يتقدم بين يدى الله ورسوله؛ بالقول فيها بالزيادة عليها أو النقص منها، بل كلهم مجمعون على الإيمان بها، فجزأهم الله عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء، كما اجتهدوا - رضى الله عنهم- فى بيان أن القرآن الكريم قد جمع فى حديثه عن هذه الأصول الإيمانية بين أمرين منهجيين:

الأمر الأول: ذكر هذه المسائل وبيانها للأمة.

الأمر الثانى: دلائل هذه المسائل وبراهينها، فلم يذكر القرآن مسألة من مسائل العقيدة إلا ذكر معها برهانها العقلى الذى تضمنه دليلها النقلى، والأمثلة على ذلك كثيرة فى القرآن الكريم، كأدلة القرآن على وجود الله ووحدانيته، ودلائل البعث والحساب، فإن القرآن الكريم يقدم الآية كدليل نقلى معصوم، وفى نفس الآية

(١) رواه البخارى بلفظ مختلف ٥/ ٨ كتاب أصحاب النبى ﷺ.
(٢) راجع الرسالة ص ٩٩.

نجدها تتضمن البرهان العقلى المعلوم.

وذلك كاستدلال القرآن على التوحيد بضرب الأمثلة البرهانية التى هى فى صميمها قياس منطقى ضمنى، وكاستدلال القرآن على وجود الله بالاستفهام الإنكارى المتضمن للإقرار الضرورى بوجود الخالق، قال تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾، وكاستدلال القرآن على البعث بالنشأة الأولى فإن ذلك قياس عقلى برهانى يسمى قياس الأولى. وهكذا نجد القرآن الكريم حين يذكر مسائل العقيدة يذكر معها دلائلها نقلًا وعقلًا.

* * *

خصائص العقيدة الإسلامية

تتميز العقيدة الإسلامية بخصائص باينت بها جميع العقائد الأخرى، وضعية كانت أو سماوية طالتها يد التحريف والتبديل:

[أ] عقيدة ربانية:

من أهم خصائص العقيدة أنها عقيدة ربانية، تكفل الحق سبحانه وتعالى بحفظها من التبديل والتحريف؛ بالزيادة عليها أو النقصان منها، ذلك أن مصدرها هو الوحى من كتاب الله، وسنة رسوله، وقد حفظ الله كتابه الكريم من أن تناله يد التحريف والتبديل كما وقع فى الكتب الأخرى قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (١)، قد تواترت بها النصوص، وتناقلتها الأجيال محفوظة فى الصدور، ومسطورة فى الكتب، تحوطها عناية المشتغلين بها، يحملها من كل جيل عدو له، يحدوهم فى ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ (٢)، وقوله: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ (٣).

والرسول ﷺ قد بين لهم هذه الأصول الإيمانية؛ أفضل بيان وأقومه، وقبل أن يموت ﷺ نزل قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ (٤)، فما زادوا، ولا بدلوا، ولا حرفوا، وقال صلى الله عليه وسلم: «لَقَدْ تَرَكْتُكُمْ عَلَى مِثْلِ الْبَيْضَاءِ، لَيْلُهَا كَنَهَارِهَا، لَا يَزِيغُ بَعْدِي عَنْهَا إِلَّا هَالِكٌ» (٥). فاعتصموا رضى الله عنهم بما جاءهم به نبيهم عن ربهم سبحانه وتعالى عن ذاته وصفاته، وعن القدر وأحواله، وعن اليوم الآخر وما جاء عنه. ولم يترك الرسول ﷺ

(١) الحجر: ٩ .
(٢) الحشر: ٧ .
(٣) آل عمران: ٣١ .
(٤) المائدة: ٣ .
(٥) السنة لابن أبى عاصم ١/ ٢٦ حديث ٤٨ .

لأحدٍ فى ذلك مقالًا؛ يتقدم به بين يدى الله ورسوله، وكل من قال فى ذلك بغير ما جاء به الوحى المعصوم، فقد قال عن الله وفى الله وعلى الله ما لم ينزل به عليهم سلطان، وقال على الله بغير علم، وكل ما تنازع فيه الناس فى ذلك يجب رده إلى الله ورسوله، فجاءت هذه العقيدة بأصولها وفروعها نصًا من كتاب الله وما صح من سنة رسول الله ﷺ، فتمسكت بها الأجيال وتناقلها العلماء، محفوظة فى صدورهم بحفظ الله لها، أو مسطورة فى مؤلفاتهم أمنًا وأمانًا لها من التبديل أو التحريف، فهى ربانية المصدر، قرآنية الأصل، مأخوذة من مشكاة أنوار النبوة المعصومة، ونسأل الله أن نموت عليها، وأن نُبعث عليها، وأن تكون حجة لنا لا علينا.

[ب] إنها عقيدة فطرية:

قريبة من القلب، سهلة المأخذ، بسيطة فى تناول قضاياها، بعيدة عن تعقيدات الفلاسفة وجدل المتكلمين، خالية من أسرار الكهنوت وشعوذاتهم وخرافاتهم، ينفتح لها القلب إيمانًا وتقبلًا لها وائتناسًا بها، فلا يحس معها المؤمن بغربة، لأن أصل هذه العقيدة أمر فطرى مغروز فى كل بنى آدم مؤمنًا كان أو كافرًا، قال تعالى: ﴿**فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ**﴾ [1]، وأشار إلى ذلك الرسول ﷺ فى الحديث الصحيح الذى رواه البخارى ومسلم: «**كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه**»[2]، فعقيدة التوحيد ليست غريبة على فطرة الإنسان لأنه قد ولد عليها، وتجذرت فى فطرته، والرسل - صلوات الله عليهم- جاءوا ليذكروا بنى آدم بهذه الفطرة.

ومن مظاهر قربها إلى الفطرة، ما تتميز به هذه العقيدة من عوامل التيسير، ورفع الحرج، ودفع المشقة عن الإنسان، مراعاة لظروفه وأحواله. قال تعالى: ﴿**وَمَا**

(١) الروم: ٣٠.

(٢) رواه البخارى (٣١٩) ومسلم (٢٦٥٨).

جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ [1]، وقال سبحانه: ﴿ **يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ** ﴾ [2].

وقال صلى الله عليه وسلم لمعاذ حين بعثه إلى اليمن: «**يسروا ولا تعسروا. بشروا ولا تنفروا، إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه**»[3].

وهذا الأمر قد فصل القول فيه علماء الأصول والفقهاء، مما يدل على مراعاة هذه العقيدة ظروف الإنسان وأحواله بما جبلت عليه من الإيمان بالله ربًا خالقًا وإلهًا معبودًا، فلم تكن دعوة الرسل غريبة على هذه الفطرة ولا معارضة لها. وجاء فى الحديث القدسى: « **وإنى خلقت عبادى حنفاء كلهم وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم**»[4]، أى: حنفاء على ملة الإسلام وعقيدة التوحيد، وقد ربط كثير من العلماء قضية الفطرة بالآية الكريمة: ﴿**وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ**﴾ [5]، فقد أقر كل بنى آدم لله بالربوبية فى مرحلة وجودية سابقة؛ تسمى مرحلة (الذر) سابقة على الوجود العينى الحسى للإنسان، وكان هذا الإقرار السابق بمثابة الجذور والأساس للفطرة الإنسانية العارفة بربها المقرة له بالتوحيد، ولذلك لم تجد هذه الفطرة غربة فى دعوة الرسل لها بالدعوة إلى الله والإيمان به، وأن ما طرأ على الفطرة من عوامل فساد البيئة من الشكوك والشبهات فإنه قابل للإزالة والشفاء منه. بتقبل دعوة الرسول، ومن هنا كان القرآن شفاء لما فى الصدور، قال الله تعالى: ﴿ **يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى**

---

(١) الحج: ٧٨ .
(٢) البقرة: ١٨٥ .
(٣) رواه البخارى (٣٩) .
(٤) مسند أبى داود الطيالسى ٢/ ٤٠٤ حديث رقم ١١٧٥ .
(٥) الأعراف: ١٧٢ .

﴿ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ (١).

وكانت دعوة الرسل تذكيرًا بذلك، والقرآن نفسه قد سماه الله تذكرة وذكرى، قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ۝ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾ (٢) وقال سبحانه: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ (٣)، والقرآن الكريم سمى وظيفة الرسول بالبلاغ والتذكير قال الله سبحانه وتعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ۝ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ (٤)، فالفطرة فى الإنسان أساس البناء المعرفى بالله فى الإنسان، والوحى مذكر بما فى هذه الفطرة من معرفة سابقة.

[ج] إنها عقيدة وسطية:

فهى وسط بين عقيدة التجسيم، وعقيدة التعطيل، وكانت الأمة الإسلامية وسطًا بين الأمم بعقيدتها قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ (٥)، فهى وسط فى مسائل الأصول ومسائل الفروع فلا إفراط فيها ولا تفريط، ولذلك كان الإسلام وسطًا بين الملل الأخرى، سواء كانوا أهل كتاب منزل أم كانوا أهل فلسفات وضعية.

فعقيدتنا وسطية بين اليهود الذين شبهوا الله بالإنسان، فوصفوا الله بالفقر فقالوا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾ (٦) ووصفوه بالبخل فقالوا: ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ (٧) والنصارى الذين شبهوا المخلوق بالخالق فجعلوا لله ابنًا وجعلوه إلهًا، أو جزء من إله، أو ثالث ثلاثة: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ (٨).

وعقيدتنا وسط فى النبوة والإيمان بالأنبياء، فإن اليهود فرطوا فى حق الأنبياء:

---

(١) يونس: ٥٧ .
(٢) عبس: ١١-١٢ .
(٣) ق: ٣٧ .
(٤) الغاشية: ٢١-٢٢ .
(٥) البقرة: ١٤٣ .
(٦) آل عمران: ١٨١ .
(٧) المائدة: ٦٤ .
(٨) التوبة: ٣٠ .

﴿ كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمُ فَرِيقًا كَذَّبُوا۟ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴾ (١)، ووصفوا رسل الله بالزنا والكذب والخديعة.

أما النصارى فغلوا فى المسيح وجعلوه إلهًا، يُعْبَدْ من دون الله: ﴿ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ ﴾ (٢).

أما المسلمون فآمنوا بهم جميعًا؛ على أنهم بشر ورسل اصطفاهم الله لتبليغ رسالته: ﴿ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ ﴾ (٣).

وعقيدتنا وسط فى فروع الشريعة، فى مسائل الحلال والحرام، فاليهود قد حرم الله عليهم بعض الحلال بسبب كفرهم وصدهم عن سبيل الله؛ قال تعالى: ﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ ﴾ (٤)، وفى النصرانية نجد نبى الله عيسى يحل لبنى إسرائيل بعض ما حرَّم الله عليهم؛ قال تعالى: ﴿ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ﴾ (٥).

أما المسلمون فقد أحلَّ الله لهم كل الطيبات، وحرَّم عليهم كل الخبائث، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ (٦)، وقال تعالى: ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ﴾ (٧)، ولذلك كانت العقيدة الإسلامية وسطًا بين المغالى فيها والجافى عنها، فالمغالى فيها منبوذ والجافى لها منبوذ والوسطى فيها ممدوح ومأجور.

[د] إنها عقيدة برهانية:

تأسست على البرهان الصادق المؤسس لليقين الجازم، فلا مجال فيها لتقليد الرأى، أو المذهب، أو الشيخ، ولا مجال فيها للكهنوت والخرافة والشعوذة، فالعقل

(١) المائدة: ٧٠ .
(٢) التوبة: ٣١ .
(٣) البقرة: ١٣٦ .
(٤) النساء: ١٦٠ .
(٥) آل عمران: ٥٠ .
(٦) البقرة: ١٧٢ .
(٧) الأعراف: ٣٢ .

فى عقيدتنا نور من نور الله فى الإنسان، كما أن الوحى نور من نور الله للإنسان والنور لا يضاد النور ولا ينفيه، ولا يعارضه بل يقويه ويرفده ويؤيده، ولذلك كانت العقيدة الإسلامية مؤسسة على الجمع بين نور العقل ونور الوحى، والقرآن الكريم قد جعل العقل فى الإنسان أساسًا للتكليف الشرعى، فلا يكلف المجنون، ولا النائم، لا الصبى قبل البلوغ.

وإذا ذهب العقل من الإنسان سقط عنه التكليف بالشريعة أمرًا ونهيًا، وغنىٌ عن التفصيل هنا حديث القرآن عن العقل وأهميته ووظيفته فى الخطاب القرآنى[1].

ومن المفيد هنا؛ أن نشير إلى أن القرآن الكريم، قد كلَّف العقل بالنظر والتأمل والتفكر فى عالم الشهادة. وجعل ذلك العالم من سمائه إلى أرضه مجالًا لعمل العقل، وطلب منه الإيمان به، والبحث فيه وصولًا إلى اكتشاف قوانينه، وتسخيره للإنسان وتعميره، أما عالم الغيب فلم يأمر القرآن بالبحث فيه ولا التساؤل عن ماهيته ولا كيفيته؛ بل ورد الأمر بالإيمان به على مراد الله منه، ومن تمام نعمة الله على المؤمنين به أن كل قضية عقدية أمر بها القرآن، ساق بين يديها براهين صدقها ودلائل يقينها، علم ذلك من علمه، وجهل ذلك من جهله، حتى مسائل البعث والحساب، وكان من أظهر دلائل القرآن على ذلك، هو الاستدلال بالنشأة الأولى على النشأة الثانية، ولك أن تراجع آخر سورة يس والآيات التى ختمت بها هذه السورة الكريمة، لتقف على دلائل قدرة الله على البعث واليوم الآخر، قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[2].

(١) راجع كتاب الوحى والإنسان العدد السادس من سلسلة تصحيح المفاهيم، د/ محمد السيد الجليند .
(٢) يس: ٧٨-٨٣ .

فالآيات قدَّمت أكثر من برهان يقينى على إمكان البعث، والحساب والجنة، والنار، وورد مثل ذلك فى القرآن كثير.

واهتم القرآن الكريم بالأدلة العقلية، التى برهن بها على العقيدة ومسائلها بأكثر من صورة، أحيانًا فى صور ضرب الأمثال؛ التى هى فى جوهرها قياس عقلى ضمنى، وأحيانًا فى صورة المقدمات التى يلزم عنها نتائجها بالضرورة، وأحيانًا فى صورة الاستفهام التقريرى، وأحيانا الاستفهام الإنكارى، وهذا التنوع فى الاستدلال يتناسب مع تنوع الطبائع البشرية، فلكل عقل مورده المناسب له، وبلغ من اهتمام الإسلام بإقامة البرهان وصحة العقيدة أن إيمان المقلد منهى عنه، وللعلماء فيه كلام يطول شرحه، وتقليد الآباء والعلماء والأئمة حتى فى مسائل الأصول منهى عنه. ومن ظن أن عوام المسلمين يتبنون مسائل العقيدة تبعًا لإمام معين أو تقليدًا لصاحب مذهب، فذلك ظن الجاهلين.

والإمام أحمد بن حنبل وهو إمام فى السلف قد نهى عن ذلك، وقال حكمته المشهورة: «لا يقلد دينك الرجال فإنهم لن يسلموا أن يغلطوا»، لا تقلدنى، ولا مالكًا، ولا الثورى، ولا الشافعى، وكل الأئمة الكبار قد نهوا عن التقليد فى أصول الدين ولا يقبلون كلام العالم إلا مقرونًا بحجته وبرهانه، وجميع سلف الأمة يؤمنون بالبرهان ويجعلونه أساسًا فى بناء العقيدة، ودليلًا على مسائلها، ويحاربون التقليد ويذّمونه، ويجمعون فى مواقفهم بين نور العقل الصريح، ونور النص الصحيح دون مظنة للتعارض أو التناقض.

[هـ] الشمولية:

من أهم خصائص هذه العقيدة أنها شاملة جامعة لأمور الدين والدنيا، فالدنيا فيها مزرعة للآخرة، وسلوك الإنسان فى الدنيا مقدمة ضرورية لحسابه أمام الله فى الآخرة، وجزائه فيها ثوابًا وعقابًا قال تعالى: ﴿وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا

﴿تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾ [1]، إنها عقيدة جامعة بين المادة والروح، شاملة لكل عمل يقوم به الإنسان فى هذه الحياة الدنيا إذا اقترن عمله بنية التقرب إلى الله، فالإنسان إذا تكلم أو سكت، إذا أحب أو كره، إذا قَبِلَ أو رفض، إذا تحرك أو سكن، فإن ذلك كله مشمول بهذه العقيدة قال صلى الله عليه وسلم: «**لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعًا لما جئت به**»[2]، وعلاقة الإنسان بالإنسان وبالمجتمع وبالحاكم وعلاقته بالكون وما فيه، يجب أن تكون مشمولة بهذه العقيدة، ولذلك فقد ربط الإسلام سلوك الفرد وعلاقاته المتنوعة بالعقيدة الصحيحة، كما يربطها بالإيمان زيادة ونقصانًا، أو وجودًا وعدمًا. وقد جاءت الأحاديث الكثيرة لتؤكد شمول العقيدة لكل هذه العلاقات قال صلى الله عليه وسلم:

١ - «**لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه**»[3].

٢-«**لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ، وَوَلَدِهِ، وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ**»[4].

٣- « **مَا يُؤْمِنُ مَنْ بَاتَ شَبْعَانَ وَجَارُهُ طَاوٍ إِلَى جَنْبِهِ** »[5].

٤-«**من غشنا فليس منا**»[6].

٥-«**تعس عبد الدينار تعس عبد الدرهم**»[7] الحديث

٦- «**من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم**»[8].

---

(١) القصص: ٧٧ .

(٢) سبق تخريجه .

(٣) مسند الإمام أحمد ٢١/ ٣٨٩ حديث رقم ١٣٩٦٣ .

(٤) مسند الإمام أحمد ٢٠/ ٢٠٢ حديث رقم ١٢٨١٤ .

(٥) مصنف ابن أبى شيبة حديث رقم ٢٩٧٦٨ .

(٦) سنن ابن ماجه ٢/ ٧٤٩ حديث رقم ٢٢٢٥ .

(٧) المعجم الأوسط ٣/ ٩٤حديث رقم ٢٥٩٥ .

(٨) المعجم الأوسط ٧/ ٢٧٠ حديث رقم ٧٤٧٣ .

٧-«عدلت شهادة الزور بالشرك بالله»[١].

٨- قِيلَ للنبى ﷺ: أَيَكُونُ الْمُؤْمِنُ كَذَّابًا؟ فَقَالَ: «لا»[٢].

كما جسد القرآن الكريم شمولية هذه العقيدة؛ لكل سلوك إنسانى فى شكل الأوامر والنواهى التى جاءت بها الشريعة الإسلامية، قال تعالى:

١- ﴿ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾[٣].

٢- ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴾[٤].

٣- ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُواْ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ﴾[٥].

٤- ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ ﴾[٦].

٥- ﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴾[٧].

٦- ﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴾[٨].

٧- ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ﴾[٩].

٨- ﴿ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ﴾[١٠].

وعلى سبيل الإجمال، فإن العقيدة الإسلامية، شاملة وضابطة لكل سلوك

---

(١) سنن ابن ماجه ٢/ ٧٩٤ حديث رقم ٢٣٧٢ .
(٢) موطأ الإمام مالك ٢/ ١٦٩ حديث رقم ٢٠٨٨ .
(٣) النحل: ٩١ .
(٤) النساء: ٥٨ .
(٥) المائدة: ٢ .
(٦) الحجرات: ١١ .
(٧) الهمزة: ١ .
(٨) المطففين: ١،٢ .
(٩) النحل: ٩٠ .
(١٠) البقرة: ٢٦٣ .

أخلاقى سلبًا أو إيجابًا، وكانت القيم الأخلاقية فى مجالها العملى السلوكى تطبيقًا واقعيًا للإيمان بهذه العقيدة، وأثرًا من آثارها، ولذلك كانت الأخلاق فى الإسلام مظهرًا لكمال الدين، وبخاصة كما قال صلى الله عليه وسلم: «**إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق**»(١)، وقال الحسن البصرى: «لَيْسَ الْإِيمَانُ بِالتَّحَلِّي وَلَا بِالتَّمَنِّي، وَلَكِنْ مَا وَقَرَ فِي الْقَلْبِ، وَصَدَّقَتْهُ الْأَعْمَالُ» (٢).

وأُحيل القارئ الكريم؛ إلى الربط القرآنى بين هذه العقيدة وشمولها لكل ما أمر الله به ونهى عنه، قال تعالى: ﴿**قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۖ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾** (٣).

وتكرر هذا فى القرآن كثيرًا حيث تجد الأوامر والنواهى الأخلاقية تلبس ثوب العقيدة الدينية، لتكتسب بها قداستها فى الاعتقاد بها ووجوب تنفيذها، باعتبارها مظهر الكمال الإيمان وصحيح الاعتقاد.

[و] كرامة الإنسان فى حرية الاعتقاد:

احتل الإنسان فى العقيدة الإسلامية مكانة ومكانًا لا نظير لهما فى أى عقيدة أخرى، فلقد كرَّمه الله وجعله خليفة له فى الأرض، وائتمنه على هذا الكون ليعمره بمنهج الله، جاء ذلك فى القرآن الكريم فى صيغة القرار الإلهى الملزم لكل مؤمن بالله

(١) مسند البزار ١٥/ ٣٦٤ حديث رقم ٨٩٤٩ .
(٢) شعب الإيمان للبيهقى: ١/ ١٥٨.
(٣) الأنعام: ١٥١ -١٥٣ .

ورسوله، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ (١).

وتعددت مظاهر تكريم الإنسان فى القرآن الكريم، وجعل القرآن ذلك التكريم جزء أساسيًا فى الاعتقاد، فمن مظاهر تكريم الإنسان:

١-أن الله خلقه بيديه وأمر الملائكة بالسجود له، وأن الله سخر له ما فى السموات وما فى الأرض، قال تعالى: ﴿سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ (٢).

٢-ومن مظاهر تكريم الإنسان: أن جعل الإنسان فاعلًا بحريته وإرادته وليس بمقتضى الطبع، أو الغريزة، وجعله حرًا فى عقيدته لا سلطان لأحدٍ عليها إلا الله، قال تعالى: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ﴾ (٣)، قال الله تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ (٤)، ﴿ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ﴾ (٥)أعملوا ما شئتم. وذلك يعد بيان الحجة ووضوح المحجة حتى لا يكون لأحد حجة بعد البيان.

٣-ومن مظاهر التكريم أن الله جعله خليفة له فى أرضه أمينًا على الكون وما فيه: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ (٦). فجمع بينه وبين الكون فى صحبة دائمة، ووحدة وجودية، تجلت مظاهرها فى صور متعددة، فمنها وحدة البدء، ووحدة المصير، فالكل خلق من خلق الله، قال تعالى: ﴿هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ (٧)، وقال سبحانه: ﴿كُلٌّ إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ﴾ (٨).

وتجلت فى وحدة التكوين والعنصر المادى، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا﴾ (٩)، ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ (١٠) فإن عناصر الكون المادى واحدة سواء تشكلت فى هيئة إنسان، أو

(١) الإسراء: ٧٠.
(٢) لقمان: ٢٠.
(٣) البقرة: ٢٥٦.
(٤) الكهف: ٢٩.
(٥) فصلت: ٤٠.
(٦) البقرة: ٣٠.
(٧) لقمان: ١١.
(٨) الأنبياء: ٩٣.
(٩) نوح: ١٧.
(١٠) يس: ٣٦.

حيوان، أو نبات، أو حشرة. فالكل أصله ترابى المصدر.

وتجلت هذه الوحدة فى وحدة النظام الحاكم للكل، ووحدة القانون المسيطر على كل ذرة فى هذا الكون، قال تعالى: ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾ (١)، ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴾ (٢). فإن الحيوان، والنبات، والإنسان، والرياح، والأمطار والأفلاك خاضعة لهذا التقدير كمًا وكيفًا حسب مشيئته وحكمته.

وتجلت هذه الوحدة كذلك فى أن مصدر هذا النظام واحد وليس متعددًا. قال تعالى: ﴿ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ﴾ (٣)، ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ﴾ (٤)، ﴿ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ﴾ (٥). فالذى خلق هو الذى سوى، وهو الذى قدَّر الأمر، وهو الذى يبث الأمر فى المخلوق بقدر معلوم، زمانًا ومكانًا، كمًا وكيفًا، فعالم النبات له أمره، وعالم الإنسان له أمره، وعالم الحيوان وعالم الأفلاك كذلك، لأن الأمر كله لله. هذه الوحدة الشاملة للوجود كله بداية ونهاية، نظامًا وقانونًا، تقديرًا وأمرًا، من شأنها أن تبعث فى الإنسان روح الألفة مع الكون، والمودة مع بنى الإنسان، والتعاون والتواد مع المجتمع كله. وتلك قضية عقدية من خصوصيات الإسلام، وهى على جانب كبير من الأهمية يظهر أثرها جليًا فى العلاقات الاجتماعية بين الإنسان والإنسان، وبين الإنسان والمجتمع، وبين الإنسان والكون، فالكل مصدره واحد، ومصيره واحد، وقانونه واحد، وخالقه واحد، ومالك ناصيته واحد، وهذه كلها روافد لتشكيل علاقة المؤمن بغيره، وتؤسس فى القلوب الاعتقاد بوحدة الإنسانية؛ مبدأً، ومصيرًا، وقانونًا حاكمًا للكل، فيسود مبدأ المساواة بين بنى البشر، فكلكم لآدم وآدم من تراب، ولا فضل لعربى على أعجمى ولا لأبيض على أسود، وتتحقق معجزة الحكمة القرآنية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ

(١) القمر: ٤٩ .
(٢) الفرقان: ٢ .
(٣) الأعراف: ٥٤ .
(٤) آل عمران: ٥٤ .
(٥) يونس: ٣١ .

﴿لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ﴾ [1] ويبقى اختلاف اللون واختلاف اللسان واللغة مظهر من مظاهر القدرة الإلهية، وآية من آيات الله فى خلقه، كما قال تعالى: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ خَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفُ أَلۡسِنَتِكُمۡ وَأَلۡوَٰنِكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡعَٰلِمِينَ﴾ [2].

وحرية الإنسان فى الإسلام دين وفريضة فلا عبودية إلا لله، وعلى قدر ثقتك بالله وحسن توكلك عليه تكون قابضًا بزمام حريتك، فلا سلطان لأحد عليك وإذا استعنت فاستعن بالله، وعلى قدر خشيتك له فى الغيب، يخشاك الناس فى الغيب والشهادة، وعلى قدر فناء إرادتك عند رؤية إرادته، يسخر لك ما يحقق لك إرادتك وعند التحقق من عبوديتك له يتحقق لك حريتك مما سواه.

والله من وراء القصد.

كان الفراغ منه

فى يوم الجمعة ١٦ ذو الحجة ١٤٣٥هـ

الموافق ١٠ أكتوبر ٢٠١٤ م

* * *

(١) الحجرات: ١٣ .

(٢) الروم: ٢٢ .

كتب للمؤلف

أولاً: سلسلة تصحيح المفاهيم: صدر منها:

١) الاستشراق والتبشير قراءة تاريخية.
٢) منهج السلف بين العقل والنقل.
٣) الأصولية والحوار مع الآخر.
٤) فلسفة التنوير بين المشروع الإسلامى والتغريبى.
٥) تأملات حول منهج القرآن فى تأسيس اليقين.
٦) الوحى والإنسان قراءة معرفية.
٧) خلل فى مسيرة الأمة.
٨) الصراع العربى الإسرائيلى .. قراءة فى الجذور التوراتية.
٩) الغيب والشهادة كما تحدث القرآن الكريم.
١٠) سؤال الهوية. هويتنا الإسلامية فى مفترق الطرق.

ثانيًا: مؤلفات:

١) الإمام ابن تيمية وقضية التأويل.
٢) قضية الخير والشر فى الفكر الإسلامى.
٣) من قضايا التصوف فى ضوء الكتاب والسنة.
٤) نظرية المنطق بين فلاسفة الإسلام واليونان.
٥) قضية التوحيد بين الدين والفلسفة.
٦) دراسة أساسية لمشروع قانون إسلامى لحماية البيئة بتكليف من الاتحاد العالمى لحماية البيئة (طبع بالإنجليزية والفرنسية والألمانية) بالاشتراك مع آخرين.

٧) الفلسفة الخلقية لدى مفكرى الإسلام.
٨) فى المنطق ومناهج البحث بالاشتراك.
٩) عقائد وتيارات فكرية معاصرة بالاشتراك مع آخرين.
١٠) من قضايا الفكر الإسلامى فى مواجهة التغريب واستلاب الهوية.
١١) من قضايا علم الكلام فى ضوء الكتاب والسنة.
١٢) فى علم الأخلاق قضايا ونصوص.

ثالثًا: تحقيق التراث:

١) دقائق التفسير الجامع لتفسير شيخ الإسلام ابن تيمية – فى ستة أجزاء.
٢) مشكاة الأنوار الهادمة لقواعد الباطنية – الأشرار – ليحيى بن حمزة العلوى.
٣) كتاب التوحيد وإخلاص العمل لوجه الله لابن تيمية.
٤) كتاب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لابن تيمية.
٥) عيوب النفس ودواؤها فى القرآن الكريم للسلمى.
٦) تقريب درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية.
٧) أصول أهل السنة والجماعة المسماة برسالة أهل الثغر لأبى الحسن الأشعرى.
٨) الإشارة إلى مذهب أهل الحق للشيرازى.
٩) الانتصار فى ذكر أحوال قامع المبتدعين وآخر المجتهدين لشيخ الإسلام ابن تيمية.

رابعًا: بحوث ودراسات نشرت بالمجلات الثقافية:

١) الدين والدولة بين التاريخ والواقع – مجلة الثقافة – مصر ١٩٧٠م.
٢) رسالة إلى حكومات العالم الإسلامى – مجلة الدعوة ١٩٧٦م.
٣) الله والعالم بين النظر الفلسفى والحقائق الدينية مقارنة بين منهجين – دار العلوم ١٩٨٣م.

٤) المنطلقات الفكرية للأصولية المتطرفة – مجلة الدراسات العربية للعلوم الإنسانية – الكويت ١٩٩٥م.

٥) لغة الحوار بين الإسلام والغرب – المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ١٩٩٦م.

٦) أزمة عقل أم أزمة أنظمة – مؤتمر المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ١٩٩٧م.

٧) دار العلوم وتاريخ الدرس الفلسفى فى مصر – الجمعية الفلسفية المصرية ٢٠٠١م.

٨) نحن والآخر حوار أم صراع – ضمن أعمال المؤتمر الدولى السابع لدار العلوم ٢٠٠٢م.

٩) الخطاب الدينى المفترى عليه – المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ٢٠٠٣م.

١٠) ابن تيمية الإمام المفترى عليه – جامعة الملك عبد العزيز – كلية الآداب ١٩٨٢م.

١١) الحضارة الإسلامية وتكريم الإنسان – منبر الإسلام - يوليو ٢٠٠٣م.

١٢) ابن رشده وأثره فى الفلسفة اليهودية – حولية كلية الشريعة- قطر ١٩٩٣م.

١٣) محمود قاسم فى صحبة ابن رشد – كتاب تذكارى صدر عن قسم الفلسفة الإسلامية – دار العلوم ١٩٩٥م.

١٤) الإمام الجوينى وتطور الفكر الأشعرى – مؤتمر الجوينى – قطر ١٩٩٧م.

١٥) يوسف القرضاوى ومنهجه التجديدى.

١٦) فقه النوازل (الأقليات الإسلامية نموذجًا) – مؤتمر مجمع فقهاء الشريعة بأمريكا – كندا ٢٠٠٨م.

١٧) فلسفة التحكيم وأثره فى استقرار الأسرة المسلمة – مجمع فقهاء الشريعة بأمريكا – الكويت ٢٠٠٩م.

١٨) حقوق الطفل فى الإسلام – مجمع فقهاء الشريعة بأمريكا – الكويت ٢٠١١م.

١٩) السلف وأثرهم فى تجديد الفكر الإسلامى – مكة المكرمة – رابطة العالم الإسلامى ٢٠١١م.

٢٠) النظرية الفقهية والتطور فى الفتوى – مؤتمر الفقه فى عالم متغير – سلطنة عمان ٢٠١٢م.

٢١) أصالة ابن رشد وأثره فى الفكر اليهودى والمسيحى.

٢٢) قضية المنهج عند الكندى.

٢٣) الدور السياسى والاجتماعى للمرأة .. رؤية إسلامية.

* * *

فهرس الموضوعات

الموضـــــــــــوع	الصفحة
المقدمة	٥
المطلب الأول :مهمة علم الكلام	٧
المطلب الثانى: تحول وظيفة علم الكلام إلى خصومات بين الفرق	١٥
تمهيد:	١٥
إعادة القراءة لعلم الكلام	٢٠
أ – قراءة مقاصدية	٢٠
ب – قراءة معاصرة	٢٤
المطلب الثالث: تجديد علم الكلام	٣٧
المطلب الرابع: عقيدة بلا مذاهب	٥١
المعرفة بين عالم الغيب والشهادة	٥٥
حديث القرآن عن الله	٥٨
القاعدة الأولى	٥٨
المطلب الخامس: معالم القراءة الجديدة	٦٣
أولًا: المنهج القرآنى	٦٣
ثانيًا: قياس الأولى	٦٦
أ- إثبات التوحيد	٦٧
ب- إثبات صفات الكمال ونفى صفات النقص	٦٧
ج- الاستدلال على البعث والحساب والدار الآخرة	٦٨
ثالثًا: التخلى عن المنهج الجدلى	٦٨

الموضـــــــــــوع الصفحة

رابعًا: حسن الظن بالأئمة المجتهدين المخالفين فى الرأى والمذهب ٧٠

خامسًا: أهمية الربط بين الإيمان القلبى والسلوك الأخلاقى ٧٢

سادسًا: ضرورة الإفادة من عطاء العلم الحديث..... ٧٣

قضايا جديدة معاصرة..... ٧٥

أصول العقيدة ٨١

التوحيد دين جميع الأنبياء..... ٨١

أصول العقيدة ٨٣

الإيمان بالغيب: ٨٦

الإيمان بالقدر ٨٧

الإيمان بجميع الأنبياء وكتبهم ٨٩

خصائص العقيدة الإسلامية..... ٩٤

[أ] عقيدة ربانية: ٩٤

[ب] إنها عقيدة فطرية:..... ٩٥

[ج] إنها عقيدة وسطية: ٩٧

[د] إنها عقيدة برهانية: ٩٨

[هـ] الشمولية: ١٠٠

[و] كرامة الإنسان فى حرية الاعتقاد: ١٠٣

فهرس الموضوعات ١١١